# الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

## المصادر العربية
## مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ ـ ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

# المصادر العربية

## مؤرخو القرن السابع

# الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

# توطئة

## بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشـارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيلـه لأبي شامة، شهاب الديـن عبد الرحمن ابن اسماعيل المقـدسي [ ٥٩٩ ـ ٥ ٦٦هـ / ١٢٠٢ــ ١٢٦٧م] على انـه أوفى مصـدر عـربي تحدث بـاسهـاب عـن أحـداث الحروب الصليبيـة ، فهو قـد نهل مـادة جـزئية الآسـاسيين مـن مصـادر الذيـن تقـدموه، واحسـن النهل والاختيـار واستـوفى الروايـات ، وأبـدى رأيه في تـرجيح بعضهـا على بعض أحيـانـا ، أما في الـذيل فهـو المصدر ، وهو شـاهد عيان معاصر لكـل ما سجله، وهنا تجلـت أصالته وتفوقـه على غيره من المؤرخين، وبذلـك بات مصـدر الجميع الدين جاءوا من بعده. .

لقد أكثر أبـو شامة من الاشـارة الى نفسه واسرته واحوالـه في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبـا شامة مـؤرخ عملاق، كان صاحـب أحاسيس مـرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التـاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهـم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليـس من شروط التغلب على العـدو معرفتـه بالعمق مـن جميع الجوانب ؟ ومع صحـة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعـا حتى رجال السلطة منهم اهتموا بـرصد حركات العدو الصليبي عسكـريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بما رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أراداوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهـم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـالمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عـن بقية اللأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قـد توفر لنا ، وما توفـر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هـامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من اللـه ارجو التوفيـق والعون وله خـالص الحمد والشكـر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

# الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليلـه ووليه،وحبيبه المفضـال،سيدناأبي القـاسم محمد بـن عبد اللـه ذي الشرف البـاذخ،والفضـل الشـامـخ،والعلـم الـراسـخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكـة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كـوكب وطلع هلال،وعلى آل محمـد وصحبه خير صحب وأكـرم آل،وعلى تـابعيهم بـاحسـان وجميـع الأوليـاء والأبدال،وعفـا عـن المقصريـن مـن أمتـه أولي الكسـل والملال،وحشرنـا في زمـرتـه،متمسكين بشريعتـه،مقتديـن بسنتـه،متعظين بما ضرب مـن الأمثال، مـزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه(يوم لابيع فيه ولا خلال).(٢)

أما بعـد:فإنـه بعد أن صرفـت جل عمـري،ومعظم فكـري،في اقتباس الفـوائد الشرعيـة،واقتنـاص الفـرائد الادبيـة،عـنّ لي أن أصرف إلى علـم التـاريـخ بعضه،فـأحـوز بـذلك سنـة العلـم وفـرضه،اقتـداء بسيرة مـن مضـى،من كـل عالم مـرتضى،فقـل إمام مـن الأئمة إلاّويحكـي عنه مـن أخبار من سلف فـوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد اللـه الشافعي رضي الله عنـه ،قـال مصعـب الـزبيري:مـارأيت أحـداً أعلـم بـأيـام النـاس مـن الشـافعي،ويـروي عنه أنـه اقـام على تعلم أيـام الناس والأدب عشريـن سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيـم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليـه وسلم من أخبـار الأمم السالفـة،وأنباء القرون الخالفـة،ما فيـه عبر لذوي البصـائر،واستعداد لـ(يوم تبلى السرائر)(٣)،قـال الله عـز وجل وهو أصـدق القائلين:(وكلا نقص عليـك من أنباء الرسـل مانثبت بـه فـؤادك وجـاءك في هـذه الحق ومـوعظـة وذكـرى للمـؤمنين) (٤) وقال:سبحـانه وتعـالى:(ولقد جـاءهم من الأنبـاء ما فيـه مزدجـر• حكمة بالغة فما تغن النذر)(٥)،وحدث النبي صلى اللّه عليه وسلم في حديث أم ذرع (٦)وغيره مما جـرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكـى عجائب مـا رآه ليلـة أسري بـه وعـرج، وقـال: «حـدثـوا عـن بنـي اسرائيـل ولا

حرج»(٧)،وفي صحيح مسلـم عن سماك بـن حرب «قـال:قلت لجابـر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى اللّـه عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقـوم مـن مصلاه الـذي صلى فيـه الصبـح والغـداة حتـى تطلـع الشمـس،فإذا طلعـت قام وكـانوا يتحـدثـون،فيأخـذون في أمر الجاهليـة فيضحكون ويتبسم»(٨)،وفي سنن أبي داود عـن عبد اللّه بـن عمر رضي اللّـه عنهما قال:«كـان نبـي اللّه صلى اللـه عليه وسلـم يحدثنـا عن بنـي اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»(٩)

قلت :ولم يزل الصحـابة والتابعون فمـن بعدهم يتفاوضـون في حديث مـن مضـى،ويتذاكـرون مـا سبقهـم مـن الأخبار وانقضـى،ويستنشـدون الاشعار،ويتطلبـون الآثار والاخبـار،وذلك بيّن مـن أفعالهم،لمن اطلـع على أحـوالهم،وهـم السـادة القـدوة،فلنـا بهم أسـوة،فـاعتنيـت بـذلـك وتصفحته،وبحثـت عنه مدة وتطلبته،فـوقفت والحمد للّـه على جملة كبيرة مـن أحـوال المتقـدمين والمتـأخريـن،مـن الأنبيـاء والمرسلين،والصحـابـة والتابعين،والخلفـاء والسلاطين،والفقهـاء والمحدثين،والأوليـاء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق البـاقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقـدمين،كـأنـه قـد عـاصرهم أجمعين،وأنـه عنـدمـا يفكـر في أحـوالهم ويـذكرهـم،كأنـه كان مشـاهدهـم ومحاضرهم،فهـو قائم لـه مقام طـول الحياة،وان كان متعجل الوفاة٠

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستـوحش؟فقـال:كيف أستوحـش وأنا مـع النبي صلى اللّـه عليه وسلم وأصحابـه،وفي رواية قال:قيل لابـن المبارك:ياأبا عبـد الرحمن تكثر القعود في البيـت وحدك؟فقال:أنـا وحدي،أنـا مع النبي صلى اللّـه عليه وسلم وأصحابـه،يعني النظر في الحديث٠وفي رواية أخرى:وأنـا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان٠

قلت:وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــاب اطـــالعـــه مـــؤنـــس		أحـــب إلي مـــن الآنســـة
وأدرســـه فيرينـــي القـــرو		ن حضـــوراً وأعظمهـــم دارســـه

وقد اختار الله سبحـانه لنا أن نكون آخر الأمم،وأطلعنـا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليـه،وتعيها أذن واعيه،(فهل ترى لهم من باقيه)(١٠)ولنقتدي بمن تقـدمنا من الأنبياء،والائمة الصلحـاء،ونرجو بتوفيـق اللّه عز وجـل أن نجتمع بمن يـدخل الجنـة منهم،ونذاكـرهم بما نقل إلينا عنهم،وذلك على رغم أنـف من عدم الادب،ولم يكن له في هذا العلم أرب،بل أقام على غيه وأكب،والمرء مع من أحب٠

هـذا وإن الجاهـل بعلم التـاريـخ راكـب ظهـر عميـاء،خابـط خبـط عشواء،ينسب إلى من تقـدم أخبار من تأخر،ويعكس ذلـك ولايتدبر،وإن رد عليـه وهمه لايتـأثر،وإن ذكـر فلجهلـه لايتـذكر،لايفـرق بين صحـابي وتـابعـي،وحنفـي ومـالكـي وشـافعـي،ولابين خليفـة وأمير،وسلطـان ووزيـر،ولايعرف مـن سيرة نبيه صلى اللّـه عليه وسلـم أكثر مـن أنه نبـي مرسـل،فكيف له بمعرفـة أصحابه وذلك الصـدر الأول ،الذين بذكـرهم ترتاح النفوس،ويذهب البؤس٠

ولقد رأيت مجلسا،جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً،وفيهم قاضي قضاة ذلك الـزمان،وغيره مـن الأعيان،فجـرى بينهم وأنـا أسمع ذكـر من تحرم عليـه الصدقة،وهـم ذوو القربى المذكورون في القـرآن،فقال:جميعهم بنو هـاشم وبنـو عبـد المطلب،وعـدلـوا بـأجمعهـم في ذلك عما يجب،فتعجبـت مـن جهلهـم حيـث لم يفـرقـوا بين عبـد المطلـب والمطلـب،ولم يهتـدوا إلى أن المطلب هو عم عبـد المطلب،وأن عبد المطلب هو ابن هـاشم،فما أحقهم بلـوم كل لائم،إذ هـذا أصل مـن أصول الشريعـة قد أهملـوه،وباب مـن

أبواب العلم جهلوه،ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة،فابتغيت إلى اللّه تعالى الوسيلة،وأنفت لنفسي من ذلك المقام،فأخذتهابعلم أخبار الأنام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتها،فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها،وإن نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها،وهو باب واسع غزير الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار.

ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيه ما خبرته،فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين،وهو تاريخ مدينة دمشق،حماها اللّه عز وجل، الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه اللّه،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته[١١]وزدته فوائد من كتب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء.

ومرّبي فيه من الملوك المتأخرين،ترجمة الملك العادل نور الدين،فأطربني ما رأيت من آثاره،وسمعت من أخباره،مع تأخر زمانه،وتغير خلانه،ثم وقفت بعدذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين،كالعمرين رضي اللّه عنهما في المتقدمين،فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد،واجتهد في اعزاز دين الله أي اجتهاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطانا خطتنا،خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما،فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعله يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايته ذلك السلوك،فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين،وذكرى منه سبحانه(فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[١٢]فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين،ومن حذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق الّله الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الّله،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب بجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الّله على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فلّله درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى الّله بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني الّله بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه الّله ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه الّله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين(١٣)،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعـم بلاداً،صبر وصـابر،ورابـط وثابـر،وذخر اللـه له مـن الفتوح أنفسـه،وهـو فتـح الأرض المقـدسـة،فـرضي اللـه عنهما فما أحقهما بقـول الشاعر:

كـــــم تـــــرك الأول لـــــلآخـــــر
وألبـــس اللّـــه هـــاتيـــك العظـــام وإن
بلين الثـــرى عفـــواً وغفـــرانـــا
سقـــى ثـــرى أودعـــوه رحمة مـــلأت
مثـــوى قبـــورهـــم روحـــاً وريحانـــا

وقـد سبقنـي إلى تـدويـن مـآثـرهما جماعـة مـن العلماء،والأكـابـر الفضلاء،فـذكر الحافـظ الثقة أبو القـاسم علي بـن الحسن الـدمشقي في تـاريخه ترجمة حسنـة لنور الـدين محمـود بن زنكـي رحمه اللّه،ولأجلـه تمم ذلك الكتاب وذكـر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبـو يعلى حمزة بن أسد التميمـي في مذيـل التاريـخ الدمشقـي قطعـة صالحة مـن أوائل الدولـة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفـاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكـريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيـام الأتابكيـة،كلهـا وما جـرى فيهـا وفيه شيء مـن أخبـار الدولـة الصلاحية لتعلـق إحدى الدولتين بالأخـرى،لكونهما متفرعة عنهـا،وصنف القاضي بهاء الدين أبـو المحاسن يوسف بن رافـع بن تميم الموصلي،عرف بابـن شدّاد،قاضي حلـب مجلدة في الأيام الصـلاحية،وساق مـاتيسر فيها مـن الفتـوح،واستفتـح كتـابـه بشرح منـاقـب صـلاح الـديـن رحمه اللّـه تعالى،وصنف الإمام العـالم عماد الدين الكاتب،أبو حامـد محمد بن محمد ابن حـامد الأصفهاني كتـابين كلاهما مسجـوع متقن بالألفـاظ الفصيحة والمعاني الصحيحـة،أحدهما الفتح القـدسي اقتصر فيه على فتـوح صلاح الـديـن وسيرتـه،فاستفتحـه بسنـة ثـلاث وثمانين وخمسمائة،والثـاني البرق الشامـي ذكر فيه الوقـائع والحوادث من الغزوات والفتوحـات وغيرهما مما وقـع من سنـة وروده دمشق وهـي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفـاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه اللّه تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين وللّه در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام(١٤)

## فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بلاد الشام،ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدو عند نزوله على شيزر،حتى رجع خائبا، وفتح الرها والمعرّة وكفر طاب وغيرهما من الحصون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثم قصد نور الدين حلب فملكها،وخرج غازيا في أعمال تل باشر،فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد،وكسر ابرنس أنطاكية وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي معه، وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين،وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ،ووقف الأوقاف،وأظهر العدل،وحاصر دمشق مرتين،وفتحها في الثالثة،فضبط أمورها،وحصن سورها،وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها،ووسع أسواقها،ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها،وعاقب على شرب الخمر،واستنقذ من العدو ثغر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكان في الحرب ثابت القدم وحسن الرمي،صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل اللّه تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ،ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن،وساكني الحرمين،وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج،وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد ،وبنى الربط والجسور والخانات ،وجدّد كثيرا من قنى السبيل ،وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها،ووقف كتبا كثيرة،وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج،وكسر الروم والفرنج على حارم ،وكان عدّتهم ثلاثين ألفا،ثم فتح حارم،وأخذ أكثر قرى أنطاكية،ثم فتح الديار المصرية،وكان العدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة،وكان حسن الخط،كثير المطالعة للكتب الدينية،متبعا للآثار النبوية،مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها٠

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد٠

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء٠

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل،ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة.

قال:وإنها قلت عليها النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها،فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه،ثم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مالها،والّله لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها.

ثم قال:لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل.

قال ابن الأثير:وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة،كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله،ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة،فكتب إليه يقول:ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية،فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحن في ثغر،العدو قريب منا،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند،ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب،ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الاثير:فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير،الذي يقل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله،فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثله،وفيه دليل على أنه لايفعل شيئا إلا بنية صالحة،وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين.

و حكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة،فلم يحضرها عنده،فوصفت له،فلم يلتفت إليها،وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي،فأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجل،ولو أعطي غيرها كان أنفع له،فقال:أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة،فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت :قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار.

قال ابن الاثير:وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري،وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به،وله معه انبساط، قال:كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا،فأجرى فرسه،وهو يلتفت وراءه وقال لي:أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟قلت:لا،قال:قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا،تهرب ممن يطلبها،وتطلب من يهرب منها.

قلت:رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا،وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

أنـــــت لاتـــــدركـــــه متبعـــا
فـــإذا وليـــت عنـــه تبعـــك

قـال ابن الاثير:وكـان ـ يعنـي نور الـدين رحمه اللـه ـ يصلي كثيراً مـن الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجـــاعـــة والخشـــوع
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

قـال: وكـان عـارفـا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه(١٥)،ليس عنـده تعصب بـل الانصاف سجيتـه في كل شيء ،وسمـع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقـة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنـة العدل والانصـاف،وترك المحـرمات مـن المأكل والمشرب والملبس، وغير ذلك فـإنهم كانـوا قبل ذلـك كالجاهليـة،همة أحدهـم بطنه وفـرجه لايعرف معـروفاً،ولاينكـر منكراً حتـى جاء الله بـدولته،فـوقف مـع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بـذلك اتباعه وذويه،فاقتـدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة٠

قال :فـإن قال قائل: كيـف يوصف بـالزهـد من له المهالـك الفسيحة وتجبـى إليـه الأمـوال الكثيرة،فليـذكـر نبـي اللـه سليمان بـن داود عليهما السـلام،مع ملكـه،وهو سيـد الزاهـدين في زمـانه،ونبينـا صلى الله عليـه وسلم قـد حكم على حضر مـوت واليمن والحجاز وجميـع جزيـرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين٠

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها(١٦)

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعهـا في بـلاد الشـام والجزيـرة جميعهـا،والموصـل وأعمالها،وديـار مصر وغيرها مما حكم عليـه،وكان المكس في مصر يـؤخذ مـن كل مـائة دينار خمسـة وأربعـون دينـاراً،وهـذا لم تتسـع لـه نفـس غيره،وكـان يتحـرى العـدل،وينصف المظلـوم من الظـالم،كائنـا من كـان،والقوي والضعيـف عنـده في الحق سواء،وكـان يسمع شكـوى المظلـوم،ويتولى كشـف حالـه بنفسـه،ولايكل ذلـك إلى حـاجب ولا أمير،فـلا جـرم سار ذكـره في شرق الأرض وغربها.

قال:ومن عدلـه أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقـف عند أحكامها ويقول: نحـن سخر لها نمضي أوامـرها،فمـن اتباعـه أحكامهـا أنه كـان يلعب بـدمشق بالكرة،فـرأى انساناً يحدث آخر ويـومي بيده إليه،فـأرسل إليه يسـأله عـن حالـه،فقال: لي مـع الملك العـادل حكومـة،وهذا غـلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملـك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه مـا قال ذلك الرجل،وعاد يكتمـه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر لـه قوله فألقى الجوكـان من يده،وخرج مـن الميدان وسار إلى القـاضي وهو حينئـذ كمال الـدين بـن الشهـرزوري، وأرسل إلى القـاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر سـاوى خصمه وحـاكمه فلـم يثبت عليـه حق وثبـت الملك لنـور الديـن فقال نـور الديـن حينئذ للقـاضي ولمن حضر:هل ثبـت له عنـدي حـق؟قـالوا :لا،فقـال: اشهـدوا أننـي قـد وهبـت له هـذا الملـك الـذي حاكمنـي عليه،وهو لـه دوني وقد كنت أعلـم أنه لاحق لـه عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له.

قال ابن الاثير:وهـذا غاية العدل والانصـاف،بل غاية الاحسـان،وهي درجة وراء العـدل،فرحم اللّـه هذه النفس الزكيـة الطاهرة المنقـادة للحق الواقفة معه.

قلت:وهذا مستكثر من ملك متأخر،بعد فساد الأزمنة،وتفرّق الكلمة،وإلاّ فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر،وعلي رضي الّله عنهما،ثم حكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور،وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير،وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا،لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه،وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه،فدخل حاجبه عليه متعجباًوأعلمه أن رسول الحاكم بالباب،فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه،فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل،ورجع .

قال ابن الاثير:ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة،بل يطلب الشهود على المتهم،فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ،فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته،مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة،والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها،وقل المفسدون ببركة العدل،واتباع الشرع المطهر.

قال:وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال،فرأى فيها مالاً أنكره،فسأل عنه،فقيل:إن القاضي كمال الدين أرسله،وهو من جهة كذا،فقال:إن هذا المال ليس لنا،ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء،وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه،فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين،فرده إلى الخزانة،وقال:إذا سأل الملك العادل عنه،فقولوا له عني:إنه له،فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب،وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟فذكروا له قول كمال الدين :فرده إليه وقال للرسول :قل لكمال الدين :أنت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنـا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخـاصمة عليه بين يدي الله تعالى،يعاد قولاً واحداً.

قال:ومن عـدله أيضا بعد موتـه،وهو من أعجب ما يحكـى،أن انسانا كان بـدمشق غريبـاً استوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الـدين رحمه الله،فلما تـوفي تعدى بعض الأجنـاد على هذا الـرجل فشكاه فلـم ينصف فنزل مـن القلعة وهو يستغيث ويبكـي،وقد شق ثـوبه،وهو يقول: يـانور الدين لـو رأيتنا وما نحن فيـه من الظلم لرحمتنـا أين عدلك،وقصـد تربة نور الـدين ومعـه من الخلـق مالا يحصـى،وكلهم يبكـي ويصيح،فـوصل الخبر إلى صـلاح الديـن فقيـل له:احفـظ البلد والـرعيـة وإلا خرج عـن يدك،فـأرسل إلى ذلـك الرجل وهـو عند تـربة نور الـدين يبكـي والناس معـه،وطيب قلبـه ووهبـه شيئا وأنصفـه،فبكى أشـد مـن الأول،فقال لـه صلاح الدين:لم تبكـي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعـد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه.

قلت:ومـن عدلـه أنه بنى دار العـدل،قال ابن الأثير:كـان نور الـدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العـدل،وكان سبب بنائها أنـه لما طـال مقـامـه بـدمشـق وأقـام بها أمـراؤه،وفيهـم أسـد الـديـن شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقـد عظم شأنه وعلا مكانه حتـى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعـدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قـريـة أو غيرها،فكثـرت الشكـاوى إلى كمال الـدين فـأنصـف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف مـن أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببنـاء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نـوابه جميعهم وقال لهم: اعلمـوا إن نور الدين مـا أمر ببناء هـذه الـدار إلا بسببـي وحـدي،وإلا فمـن هـو الـذي يمتنـع على كمال الـديـن،ووالـلـه لئـن أحضرت إلى دار العـــدل بسبـب أحـدكـم لأصلبنه،فامضوا إلى كـل من بينكم وبينه منازعة في ملـك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ما أرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم،ولئـن أصبت والعياذ بـالله في معـركة لايبقى مـن المسلمين أحد إلاّأخذه السيـف،وأخذت البلاد،فقـال:ياقطب الـدين ومن محمـود حتى يقال لـه هذا، قبلي من حفـظ البلاد والاسـلام ذلك الله الـذي لا اله الا هو.

قـال:وكـان رحمه اللـه يكثـر أعمال الحيـل والمكـر والخداع مـع الفرنج،خذلهم اللـه تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم بـه،ومن جيد الرأي ما سلكـه مع مليح بن ليـون ملك الأرمن،صـاحب الدروب،فإنـه مازال يخدعـه ويستميله حتـى جعله في خـدمته سفـراًوحضراً ،وكان يقـاتل بـه الافـرنـج،وكـان يقـول:إنما حملني على استمالتـه أن بـلاده حصينـة وعـرة المسالـك،وقلاعـه منيعة،وليـس لنا إليهـا طريـق،وهو يخرج منهـا إذا أراد فينال من بلاد الإسلام،فإذا طلب انحجـر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت لـه شيئا من الاقطاع على سبيل التأليـف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قـال:وحيـث تـوفي نـور الـديـن رحمه اللـه،وسلـك غيره غير هـذا الطـريـق،ملـك المتـولي الأرمـن بعـد مليـح كثيراً مـن بـلاد الاسـلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومـن أحسن الآراء مـا كان يفعله مـع أجناده،فـإنه كـان إذا توفي أحـدهـم وخلـف ولـداًأقـر الاقطـاع عليـه،فـإن كـان الـولـد كبيراًاستبدّبنفسـه،وإن كان صغيراًرتب معـه رجلاً عـاقلاً يثق إليـه فيتولى أمـره إلى أن يكبر،فكان الأجنـاد يقولـون:هذه أمـلاكنا يـرثها الـولد عـن الوالد،فنحـن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما مـن الأسباب الموجبة للصبر في المشـاهـد والحروب،وكـان أيضـا يثبـت أسماء أجنـاد كـل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً مـن حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هـو مقرر عليه من العدد،ويقول نحـن كل وقت في

النفير فإذا لم يكـن أجناد كافـة الأمراء كاملي العـدد والعدد،دخل الـوهن على الإسلام.

قال:ولقد صـدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعـل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قـال:وأما فعلـه في بـلاد الاسـلام من المصـالـح ممـا يعود إلى حفظهـا وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنـى أسوار مدن الشام جميعها وقـلاعها فمنهـا:حلـب وحماه، وحمص،ودمشـق،وبـاريـن، وشيـزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنهـا وأحكم بناءها،وأخرج عليها مـن الأموال مـالا تسمح بـه النفوس،وبنـى أيضا المدارس بحلـب وحماه ودمشق وغيرهـا للشافعية والحنفية،وبنـى الجوامع في جميع البلاد،فجـامعه في الموصل اليه النهـاية في الحسن والاتقان،ومـن أحسن ما عمل فيـه أنه فوّض أمر عمارتـه والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه اللـه،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلـح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعـض أصحابي مـن الأجناد والكتـاب أعلم أنـه يظلم في بعـض الاوقات ولايفـي الجامع بظلم رجل مسلـم،وإذا وليت هذا الشيـخ غلب على ظني أنـه لايظلم،فـإذا ظلم كـان الاثم عليـه لا علي.قال:وهـذا هو الفقـه في الخلاص من الظلـم،وبنـى أيضا بمـدينـة حماه جامعـا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزههـا،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كـان قد تهدم إمـا بزلـزلة أو غيرهـا،وبنـى البيمارستانـات في البلاد،ومـن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشـق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنـه لم يجعله وقفـا على الفقراء حسـب بـل على كافـة المسلمين من غنـي وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلـم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشـاع على ألسنة العـامة لنفـع ما قـدره اللـه تعالى مـن مزاحمة الأغنيـاء

للفقراء فيه،والله المستعان،وانما صرح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها،لايمنع منه من احتاج إليه، من الأغنياء والفقراء ،فخص ذلك بذلك،فلا ينبغي أن يتعدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج،خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار الله تعالى،فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين،فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطرق،فأمن الناس، وحفظت أموالهم وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر،وبنى أيضا الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج،وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي،فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلو ا الطيور فأخذ الناس حذرهم،واحتاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العدو منهم غرضا،وكان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية،ووقف عليها الوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة،وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم،فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال،وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقـف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال:وأما هيبته ووقـاره فإليه النهاية فيهما،ولقد كـان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقـاً في غير ضعف،واجتمع له مـا لم يجتمع لغيره،فإنـه ضبط نامـوس الملك مع أجناده إلى غـاية لامزيد عليهـا،وكان يلزمهم بـوظائف الخدمـة الصغير منهـم والكبير،ولم يجلـس عنـده أمير مـن غير أن يـأمـره بالجلوس إلا نجم الـدين أيوب والد صلاح الدين يوسـف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفـون قياما إلى أن يـأمرهم بـالقعود،وكـان مع هذه العظمـة وهذا النامـوس القـائم إذا دخل عليـه الفقيـه أو الصـوفي أو الفقير يقوم لـه ويمشي بين يـديه،ويجلسـه إلى جانبـه كأنـه أقرب النـاس إليه،وكـان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هـؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهـم المنة علينـا،وكان مجلسـه كما روي في صفة مجلـس رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم، مجلس حلـم وحياء لاتـؤبن فيـه الحرم[١٧]، وهكـذا كان مجلسـه لايـذكر فيـه إلاّ العلم والـديـن وأحوال الصـالحين، والمشـاورة في أمر الجهـاد، وقصـد بلاد العـدو لايتعـدى هذا، بلغنـي أن الحافظ ابن عساكـر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صـلاح الدين يوسـف لما ملك دمشق، فـرأى فيه مـن اللغط وسوء الادب مـن الجلوس فيه مـالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الـدين كما كان يحدث نور الـدين فلم يتمكـن من القـول لكثرة الإختلاف مـن المتحدثين وقلـة استماعهم، فقام وبقـي مدّة لايحضر المجلـس الصلاحـي، وتكرر مـن صلاح الـدين الطلـب لـه، فحضر فعـاتبـه صـلاح الـديـن يـوسـف على انقطـاعـه، فقـال:نزهـت نفسي عن مجلسـك فإننـي رأيتـه كبعض مجالـس السوقـة، لايستمـع فيه إلى قـائل ولايرد جـواب متكلـم، وقد كنـا بالامـس نحضر مجلس نـور الديـن ، فكنا كما قيـل كأنما على رؤوسنـا الطير، تعلونـا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنـا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنـه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قـال ابـن الاثير:فهكـذا كـانـت أحوالـه جميعهـا رحمه اللـه مضبـوطـة محفــوظـة،وأمــا حفـظ أصــول الـديــانـات فــإنـه كــان مـراعيــا لها لايهملهـا،ولايمكن أحـداً من النـاس مـن اظهار مـا يخالف الحق،ومتـى أقـدم مقـدم على ذلك أدبـه بها ينـاسـب بـدعتـه،وكان يبـالـغ في ذلـك ويقول:نحن نحفـظ الطرق من لص وقاطع طـريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيـوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقـد كثر اتبـاعه أظهر شيئـا من التشبيه،فبلـغ خبره نور الـدين فـأحضره وأركبـه حماراً وأمر بصفعـه،فطيـف بـه في البلد جميعهـا،ونـودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكـاتـب في أوّل كتابه البرق الشامي أنـه قدم دمشق في شعبان سنـة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العـادل نور الـدين محمود بـن زنكي،وأخذ في وصفـه بكلامه المسجـوع فقال:كان ملـك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملـك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعـدلهم.وأعبدهـم . وأزهدهـم. وأجهدهـم. وأظهـرهم. وأطهـرهـم. وأقـواهـم .وأقـدرهـم.وأصلحهـم عملا. وأنجعهـم أملا. وأرجحهـم رأيا. وأوضحهـم رأيا[١٨]. وأصدقهـم قولا. وأقصـدهم طولا. وكـان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمـه عادلاً. وفضله شـاملاً. وزمانـه طيباً. وإحسانـه صيبا. والقلوب بمهـابته ومحبته ممتلئـة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلـه. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمـولة مأمونة. وروضته مصـوبة مصونة. والريـاسـة كاملة. والسياسـة شاملـة. والزيـادة زائدة. والسعادة مسـاعدة. والعيشـة ناضرة.

والشيعة نـاصرة. والانصاف صاف. والاسعـاف عاف. وأزر الديـن قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجـح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلـم معزول. والتوحيد منصـور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعـاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلـب الكفر، وبلـغ الضر. فاستفتـح معاقلهـا. واستخلص عقـائلها وأشاع بها شعـار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقـض. والبسط والقبض. والوضع والـرفع. وكانت للفرنج في أيـام غيره على بلاد الاسلام بالشـام قطائع. فقطعها وعفـى رسومهـا ومنعها. ونصره الله عليهـم مرارا حتى أسر ملـوكهم. وبدّد سلوكهـم. وصان الثغور منهم. وحماهـا عنهم. وأحيا معـالم الدين الـدوارس. وبنى لـلأئمة المدارس. وأنشأ الخانقـاهات للصوفية. وكثرها في كـل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنـى للوافدين من جنـي جنانه قطوفهـا .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمـى المرافق. وحمى الحقـائق. وأمر في الطـرقـات ببنـاء الربـط والخانـات. فضـافت ضيـوف الفضـائل. وفاضـت فيـوض الأفاضـل. وهـو الذي فتـح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها(١٩).

· ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسـع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هـذه السنـة أكثر نـور الـديـن مـن الأوقاف والصـدقـات،وعمارة المساجـد المهجورة،وتعفيـة آثار الآثام، واسقـاط كل مـا يدخـل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصـل من قسمه الغلات على قويم المنهاج·

قال: وأمـرني بكتب مناشير لجميـع أهل البـلاد،فكتب أكثر مـن ألف منشـور وحسبنـا ما تصـدق بـه على الفقـراء في تلك الأشهـر، فـزاد على ثلاثين ألـف دينار،وكانت عـادته في الصدقـةأنه يحضر جماعة من أمـاثل

البلـد من كـل محلـة ويسألهم عمـن يعـرفون في جـوارهـم من أهـل الحاجــــــة، ثـــــم يصرف إليهـــــم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كـل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوتـه ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطـة وجامكية طبـاخه، ويستفضل منه مـا يتصدق به في آخـر الشهر، وأما مـا كان يهدى إليه مـن هدايا الملـوك وغيرهم فإنـه كان لايتصرف في شيء منـه لاقليـل ولا كثير، بـل إذا اجتمـع يخرجـه إلى مجلـس القـاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فـأناف على مـائة مسجد، فـأمر بعمارة ذلـك كله، وعين لـه وقـوفاً. قـال: ولـو اشتغلت بـذكـر وقوفـه وصـدقاتـه في كـل بلد لطـال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمـد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلـوص نيته يغني عـن خبرهـا بـالعيـان، ويكفـي أســوار البلـدان عـن الـربـط والمدارس على اختـلاف المذاهب، واختلاف المواهـب وفي شرح طوله طـول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظـب على عقد مجالـس الـوعـاظ،ونصب الكـراسي لهم في القلعـة لـلانـذار والاتعـاظ، وأكبرهـم الفقيـه قطب الـديـن النيسـابـوري، وهـو مشغوف ببركـة أنفاسـه، واغتنام كـلامه واقتبـاسه، ووفـد من بغـداد ابن الشيـخ أبي النجيب الأكبر، فبسـط له في كـل أسبوع منبر وشـاقه وعظـه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورويه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحـن، وقال للقاضي كمال الـدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلـك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريـت الحشرية حاصل، ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الديـن ثلث ما يحصل فيه لكمال الـدين الحاكم، فوفره نـوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدته على ان يتصرف بالمعروف، وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار، وحفظ الثغور. وكانت دولته نافذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم، رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث. فمرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك لأنهم ير بطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد للسيف، وجميع عسكره كذلك، فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة، لما بلغته رجع بنفسه، ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن، ولقد بلغني أنه أمر باسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمره بكتابة اسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك، وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس، وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حل، وقال: والله ماأخرجناها إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثـــــــــــــل وقوفك أيها المغرور
يـــــوم القيـــــامـــــة والسماء تمور
إن قيــل نــور الــديــن رحــت مسلما
فــاحــذر بــأن تبقــى ومــالــك نــور
أنهيــت عــن شرب الخمــور وأنــت مــن
كــأس المظــالم طــافــح مخمــور
عطلــت كــاســات المدام تعففــا
وعليــك كــاســات الحرام تــدور
مــاذا تقــول إذا نقلــت إلى البلى
فــردا وجــاءك منكــر ونكير
وتعلقــت فيــك الخصــوم وأنــت في
يــوم الحســاب مسحــب مجرور
وتفــرقــت عنــك الجنــود وأنــت في
ضيــق اللحــود مــوســد مقبــور
ووددت أنــك مــا وليــت ولايــة
يــومــاً ولا قــال الانــام أمير
وبقيــت بعــد العــز رهــن حفيرة
في عــالم الموتــى وأنــت حقير
وحشرت عــريــانــا حــزينــا بــاكيــا
قلقــا ومــالــك في الانــام مجير

أرضيت أن تحيى وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبداً وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها
يوم المعاد لعلك المعذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيها من خطيها، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أماله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده،وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير ،وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:«اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتك،المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة،والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته:مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لاأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول،وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص،فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال:بالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قال لي والدي:دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله[٢٢].

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: واللّه إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لايعمل شيئا إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لايعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولايجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن اللّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلـدة، واظهار الدين، وهـذا الذي جرى بينكم لا يحسـن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نـرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابـن أبي عصرون، وقطب الـدين النيسـابـوري فاستـدعاهما جميعـا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقـت أيضا من خط فقيـه كان معيدا بـالنظامية يقال لـه أبو الفتـح بنجة بـن أبي الحسـن بن بنجـة الاشتري، وكـان ممن ورد دمشـق، وجمع لنـور الديـن سيرة مختصرة قال: كـان نـور الديـن يقعد في الأسبـوع أربعة أيـام أو خمسة أيـام في دار العدل للنظـر في أمور الـرعية، وكشـف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا دينـارا أو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلـك ابتغاء مرضـاة الله، وطلبا للثواب والـزلفى في الآخرة، ويـأمر بحضور العلماء والفقهاء ويـأمر بازالة الحاجب والبواب حتـى يصل إليه الضعيف والقـوي والفقير والغني، ويكلمهم بـأحسن الكـلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمـع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصـول إلى خصمها، ولا المكـالمة معه فيأمـر بمساواتـه لها، فتغلب خصمها طمعـاً في عدلـه، ويعجز الخصـم عن دفعهـا خوفـا من عـدله، فيظهر الحق عنـده فيجري الله تعـالى على لسانه مـا هو موافـق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكـل عليه من الأمور الغـامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالـح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهـم، وأما فكره ففـي اظهار شعار الإسـلام، وتأسيس قـاعدة الديـن من بنـاء المدارس والربـط والمساجـد حتى أن بـلاد الشام كـانت خـاليـة مـن العلـم وأهلـه، وفي زمـانـه صـارت مقـرّا للعلماء والفقهـاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربـط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أمـوالهم وأنفسهم، ولـو لم يكن من هـذه الخصال إلاّ مـا علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمائم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هـذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبـه بالـردّ عليه، فـانكر هـذا الرجـل علمه بـالوديعـة، فأوجـب عليه القاضي كمال الـدين حكم الشرع أن يحلف أنـه لاعلم له بهذه الـوديعة، فحلـف على ذلك فجعـل المودع يشنـع عليه ويقـول انـه حلـف كاذبـا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقـه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شـاكياً منه وذاكـراً سيرته وطريقتـه، ومن الذي يقـدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكـلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليـس إن الله تعـالى يقول في كتـابه:( وإذا خـاطبهم الجاهلـون قالوا سـلاما (٢٤))فاذا كـان يجهل عليك ويقـول في حقك بالجهـل مالا يجوز، فيجب عليـك أن لاتعمل معه مثـل معاملتـه فتكون مثله، فكـأنك قابلت الاساءة بـالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاسـاءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قـرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه الّله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعـة من التجار وشكوا أن القـراطيس كان ستـون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينـار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العـادل عن كيفيـة الحال فـذكـروا أن عقد المعـاملـة على اسـم الدينـار، ولايرى الـدينار في الـوسط، وإنما يعـدون القراطيـس بالسعـر تارة ستين بدينـار، وتارة سبعة وستين بـدينار، وأشـار كل واحد مـن الحاضرين على نور الـدين أن يضرب الدينار بـاسمه، وتكون المعـاملة بالدنـانير الملكية، وتبطـل القراطيـس بالكليـة، فسكت سـاعـة وقال: إذا ضربـت الدينـار وابطلت المعاملـة بالقراطيس فكأني خـربت بيوت الرعية، فـإن كل واحد من السوقـة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطـاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الّله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الّله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولـوا سمعنا وأطعنا)[٢٥] ثم نهض وركب حتـى دخل باب المدينـة، فاستدعى سـويداً وقال لـه: امض إلى القاضي تاج الـدين وسلم عليه وقـل له: إني جئت إلى ها هنا امتثـالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقـة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شـاء الّله تعالى، قال: فحضر الوكيـل وسمع الدعـوى، وتوجهت اليمين فقـال الكردري: قد تـوجهت اليمين فليحضر، فلما بلـغ نـور الديـن ذلـك وعلـم أنـه لامندوحـة عـن حضـور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التـاجر وأصلـح الأمر فيما بينـه ، وأرضاه.

وسمعت قـاضي القضاة بهاء الـدين يقـول: حكى لي السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن قال: أرسلني الملـك العادل نـور الديـن إلى عمي أسد الدين شيركـوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقـال: امض وقل لأسد الـدين: قـد خطر في بـالي أن أبطل هـذه الضمانات بـأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئـت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: ياmولانا إذا فعلت ذلـك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات مـن أين تعطيهم، وتحتـاج إليهم للغـزاة، وخروج العساكـر؟ قال السلطـان صلاح الـدين: فقلـت لعمي : هـذا أمـر قد ألهمـه الّله إيـاه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليـه ما قال عمي، فقال امض إليه وقـل له إذا كنـا نغـزو من هـذه الجهات نتركهـا ونقعـد ولانخرج، قـال: فعدت إلى عمي وقلت مـا قال، فقال : قل له إن تركـوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عـن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقـل له ما أقول لـك، فجئت إليـه وقلت له ذلـك، فترك ذلك مـدة، ثم أمضـى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الديـن أبو سالم عبد المنعم بن منـذر أن نور الدين حين خرج لأخـذ شيزر ، خرج أبـو غانم بـن منذر صحبته، فـأمره نور الـدين بكتـابـة منشـور بـاطـلاق المظـالم بحلـب . ودمشـق. وحمص. وحـران. وسنجار. والـرحبة. وعزاز. وتـلّ باشر ، وعداد العـرب، فكتب عنه تـوقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقـرّب به إلى الّله سبحانـه وتعالى صافحا، وأطلقـه مسامحا لمن علـم ضعفه من الـرعايا رعاهم الّله ،لضعفهم عن عمارة مـاأخربته أيدي الكفار أبادهم الّله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغـرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذيـن خصهم الّله سبحـانـه بفضيلـة الجهـاد، واستمحنهم بمجـاورة أهـل العنـاد اختبـاراً لصبرهـم وإعظـامـا لأجـرهم،فصبروا احتسـابـا، وأجـزل الّلـه لهم أجـرا وثـوابا،(إنما يـوفى الصابـرون أجـرهم بغير حسـاب)[٢٦]وأعاد عليهـم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفـاء الّله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّهـا في الدولـة الاسلاميـة، بعد مـا طرأ عليهـا من الظلمـة المتقدّمين، واسترجعه بسيفـه من الكفرة الملاعين، فطمـس عنهم بذلـك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقـرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](والّله يضاعـف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعـانه الّله بعـونه وأيده بنصره وقمـع به عاديـة الكفر وأظهـر بهمته شعائر الاسـلام وأظفره بالفئة الطاغيـة، وأمكنه من ملوكها الباغيـة، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنـوع الرقـاد ، وآخرين مقـرنين في الاصفاد، هذا عطـاؤنا فـامنن أوأمسك بغير حساب، (وان لـه عندنا لزلفـى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فـاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكـه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبـس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفـس شيئا والامر يـومئذ

لله(٣٠))فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب الّله، وسنة نبيه محمد صلى الّله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الّله على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الّله تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند الّله وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند الّله (والّله عنده حسن الثواب)(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويوّده، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغـذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعـم بن رضوان ابن عبـد الواحد بـن محمد بن المنـذر الحلبي، غفر اللّـه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه مـن أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبـدين وكافة التجار والمسـافرين، أحسن اللّه تـوفيقهم، وسدّد إلى أغـراض الخير تـوفيقهم ، ليشعـروا بذلـك مـن حضرهـم من التجـار والمتردّدين إليهـم من السفار، ليعـرفوا قدر ما أنعـم اللّه به عليـهوعليهم ، ولينـذروا قومهـم إذا رجعوا إليهـم، ويمـدّوه بأدعيتهـم، ويبرئوا ذمّته ممـا سبق من أخذ مـؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمـة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنـذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّتـه مما سبـق، استحسـن ذلك كثيراً، ووعـده بـاقطاع حسـن، واتفق موته بعد ذلك(٣٢).

قلـت: ونقلت مـن خـط الشيخ الأمين أبي القـاسـم عبـد الرحمن بـن الحسين بن الخضر بـن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقـي: وقف المولى نـور الديـن بستـان الميـدان سوى الغيضـة التـي مـن قبليه بعـد عمارتـه واصـلاح ما يحتـاج إليه على تطييـب المساجـد التي يـأتى ذكـرها وهـي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعـة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نـور الديـن، مسجـد ابن عطيـة داخـل باب الجابيـة، مسجـد ابن لبيـد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجـد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيـخ المعلق، مسجـد العباسي بسـوق الأحـد، مسجد نـور الديـن بجوار بيعـة اليهود، جـامع الصالحيين بجبـل قاسيون، يبتـاع بذلـك عود وطيب، ويفـرّق على هذه الأماكـن: النصف للجـامع بدمشـق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمـدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه اللّه حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كّل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به،ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولاينكر شيئا مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقوله،وليس العمل إلاّ على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي،وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشتري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلاّ مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلت:وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي:«حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

# فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانها أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهاد يمن من عدوّ ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء
فهو المالك الذي ألزم الناس
سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الاتقياء

شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينة في قباء
أنت حينا تقاس بالاسد الورد
وحينا تعد من الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لا نسبة سوى الالاء
وكان القباء منك لما ضمّ
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلا تكن نبيا فما فاتك
إلاّ خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة وعفاف
في اقتدار وسطوة في حياء
وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوّج ببهاء
وإذا ما الملوك خافت سهام الذ
ذم زرّت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك إنك في الحر
ب شهاب الكتيبة الشهباء
وكان السيوف من عزمك الما
ضي أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فداك ال
قوم بالامهات والآباء(٣٣)

وله فيه شعر
للّه عزمك أي سيف وغى
طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به
الا انجلت عن معقل بكر

هـــل وجـــه نـــور الـــديـــن غير سنـــى
صـــدع الـــدجـــى عـــن خجلـــة البـــدر

ملـــــك مهـــــابتـــــه طليعتـــــه
أبـــــدا أمـــــام جيـــــوشـــــه تسري

كـــم فـــل كيـــدهـــم بصـــاعقـــة
شغلـــت قلـــوبهم عـــن الكفـــر

تـــركـــت حصـــونهم سجـــونهم
فـــالقـــوم قبـــل الأسر في أسر

عصـــم العـــواصـــم فهـــي ضـــاحكـــة
تجلـــوا الظبـــى ثغـــرا على ثغـــر

فـــإذا سرايـــا خيلـــه قفلـــت
نهضـــت سرايـــا الخوف والـــذعـــر

ورمـــى القـــلاع بمثـــل جنـــدلها
حتـــى استكـــان الصخـــر بـــالصخـــر

يـــا ســـائلي عـــن نهج سيرتـــه
هـــل غير مفـــرق هـــامـــه الفجـــر

عـــال حقيـــق مـــن تـــأملـــه
أن يحيـــي العمـــريـــن بـــالـــذكـــر

وشهـــامـــة في اللّـــه خـــالصـــة
عقـــدت عليـــه تمائم الأجـــر

ونـــدى يـــد مـــاضرّ واردهـــا
أن لا يبيـــت مجاور البحـــر

هـــذا المخيـــم في ذرى حلـــب
وثنـــاؤه أبـــداً على ظهـــر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغـــار الشمـــس في أفـــق
مـــن حسنهـــا والشمـــس مغيـــار

يزأر فيها ضيغم ماله
غير سيوف الهند أظفار

تمسي وتضحي وهو جار لها
واللّه ذو العرش له جار

لسيفه الباتر من دهره الـ
ـجائر ما يهوى وما يختار

قد ملأ الأسفار من ذكره
نشر له في الأرض إسفار

حمد يضوع الجوّ من طيبه
كأنما راويه عطار

إن خطرة في قلبه خطرت
أجابها ماض وخطار

وإن دعا داعيه يوم الوغى
سيوفه لبته أقدار

وإنما صارمه مرسل
له من التأييد أنصار

يا ملك الدنيا ولكنها
دنيا لها في الدين آثار

ويا جوّادا ما لآلائه
غير قضاء الحمد مضمار

وله فيه أيضا:

تدارك ملة العربي ذبا
إلى أن عده منه معدّ

وحل ذرى العواصم وهي نهبى
فأجلى الشرك حتى ليس ضد

ثنى يده عن الدنيا عفافا
ومال بها عن الأموال زهد

رأى حــطّ المكـــوس عـــن الـــرعــــايــــا
فــــأهـــدر قبـــل مــــا أنشـــاه بعـــد
ومـــــد لها رواق العـــــدل شرعــــــا
وقـــد طـــوى الـــرواق ومـــن يمـــد
وبـــات وعنـــد بـــاب العـــرش منهـــا
لـــــدولتـــــه دعـــــاء لا يـــــردّ

وله فيه:

ملـــك أشبـــه الملايـــك فضـــلا
وشبيـــه بها الـــك الأمـــر جنـــده .

عـــم إحســـانـــه فـــأصبـــح يتلى
شكـــره في الـــورى ويـــدرس حمده
فسقـــى اللّـــه ذكـــره أينما حـــل
ولا فـــاتـــه مـــن النصر رفـــده

وله فيه:

ضحكـــت تبـــاشير الصبـــاح كـــأنها
قسمات نـــور الـــديـــن خير النـــاس
المشتري العقبـــى بـــأنفـــس قيمـــة
والبـــائع الـــدنيـــا بغير مكـــاس
وسرى دعـــاء الخلـــق يحرس نفســـه
إن الـــدعـــاء يعـــد في الحرّاس
راض الخطـــوب الصـــم بعـــد جماحهـــا
وألان مـــن قلـــب الـــزمـــان القـــاسي
وأعـــادنـــور الحق في مشكـــاتـــه
وأقـــام وزن الحق بـــالقسطـــاس

واختـار مجد الـدين سـائس ملكـه
فحمى السياسـة منـه طـود راسي

فهـو الخبير بكـل داء معضـل
يـأسـو جـراح زمـاننـا ويـواسي

وأذل سلطـان النفـاق بعـزة
خضعـت لها الأسـاد في الأخيـاس

وعـرتـه أقـران الخطـوب فصـدهـا
ألـوى يمارسهـا أشـد مـراس

ولـو أن فيـض النيـل فـائض نيلـه
لم تفتقـر مصر إلى مقيـاس

سكنـت شعـب الـدهـر بعـد تخمـط (٣٤)
وألنـت مـن عطفيـه بعـد شماس

وفتحـت بـاب الحظ بعـد رتـاجـه
وأذنـت لـلاطماع بعـد اليـأس

حتـى منحـت الخلـق كـل مسرّة
فـالنـاس في عـرس مـن الأعـراس

وله فيه:

سـام الشـآم ويـا لهـا مـن صفقـة
لـولاه مـا عنـت على يـد سـائم

ولشمـرت عنهـا الثغـور وأصبحـت
فيهـا العـواصـم وهـي غير عـواصـم

تلـك التـي جمحـت على مـن راضهـا
ودعـوت فـانقـادت بغير شكـائم

وإذا سعـادتـك اجتبـت في دولـة
قـام الـزمـان لها مقـام الخادم

حصـن بـلادك هيبـة لا رهبـة
فـالـدرع مـن عـدد الشجـاع الحازم

هيهـــات يطمـــع في محلـــك طـــامـــع
طـــــال البنـــــــاء على يمين الهادم

كلفــــت همتـــك السمـــوّ فحلقـــت
فكـــأنها هـــــي دعـــوة في ظـــالم

وأظـــــنّ أنّ النـــــاس لما يـــروا
عـــدلا كعـــدلـــك ارجفـــوا بـــالقـــائم

وله فيه:
قلـــت بقـــول اللّـــه لاخـــائفـــا
مـــع حكـــم القـــرآن حكـــم القـــران

لاراقـــب النجـــم ولا ســـائلا
مـــا فعـــل السعـــدان والنيران

بـــل غـــرت لـــلاســـلام حتـــى لقـــد
دان لـــه مـــن بـــالطـــواغيـــت دان

رعـــت نـــواميـــس نـــواقيسهـــا
بحلبــــة الآذان وقـــــت الأذان

تمحـــو تصـــاويـــر الـــدمـــى عـــن يـــد
تبنـــي المحـــاريـــب خـــلال المجـــان

هـــذا وكـــم أنشـــأت مـــن منبر
فـــارســـه فـــارس سحـــر البيـــان

مـــن نـــال بـــالاخـــلاص مـــا نلتـــه
كـــان مـــن اللّـــه مكين المكـــان

يـــا شـــائما بـــالشـــام صـــوب الحيـــا
ودانيـــا مـــن كـــل قـــاص ودان

هـــذي سجـــوف الملـــك مـــرفـــوعـــة
عـــن ملـــك أخبـــاره كـــالعيـــان

أوضـــح سبـــل العـــدل مفتنـــة
فللبرايـــا بـــالـــدعـــاء افتتـــان

ألغـــى حقـــوقـــا كلهـــا بـــاطــــل
إلى مــــــآل حــــــط مـــــال الضمان
عطفـــا ورفقـــا بـــالــــرعـــايــــاوان
أصبـــح تـــأديـــب ملـــوك الـــزمـــان
كــــم بين مــــن نــــام على نشــــوة
وســـاهــر في صهـــوة مـــن حصـــان
في كـــل يـــوم يبتنـــي سيفـــه
ببلــــدة بكـــر وأخــــرى عـــوان

وقـرأت في ديوان أحمد بـن منير الطرابلسي مـن قصائد يمـدح بها نـور الدين رحمه الله تعالى:

يــــا محيـــي العــــدل ويــــا منشره
مــــن بين أطبــــاق البلى وقــــد همد
وركـــــن الاســـلام الـــذي وطـــده
طـــال وأرســـى العـــز فيـــه ووطــــد
وشــــارع المعـــروف إذلا سفـــه
يجنــــح للقـــول ولا تسمــــح يـــد
محوت مــــا أثبتـــه الجور مضـــى
عليـــه إخـــلاد الليـــال مخلـــد
مـــن كـــل مكـــاس يظـــل قـــاعـــدا
لما يســـوء المسلمين بـــالـــرصـــد
كـــانـــت لأرجـــاس اليهـــود دولـــة
أزالها منـــك الهصـــور ذو اللبـــد
الملـــك العـــادل لفـــظ طـــابـــق الـــ
ــمعنى وفي الـــوصـــف معـــار مسترد
خير النعـــوت مـــا جـــرى الـــوصـــف على
صفحتـــه جـــري النسيـــم في الـــومـــد

عــــدل جنيــت اليــــوم حلــــو ريعـــه
وســـوف يجنـــى لـــك أحلى منـــه غـــد

لازال لـــــلاســـــلام منــــك عـــدة
تقيـــم منـــه كـــل زيـــغ وأود

النـــاس أنـــت والملـــوك، شرط
تعـــدّليشـــا ويعـــدّون نقـــد

مثلـــك لا يسخـــو بـــه زمـــانـــه
ومثـــل مـــا أوتيـــت لم يـــؤت أحـــد

وله فيه

أيـــا نـــور ديـــن خبـــا نـــوره
ومـــذ شـــاع عـــدلـــك فيـــه اتقـــد

رآك الصليـــب صليـــب القنـــاة
أمين العشـــار متين العمـــد

تهمّ فتسلبـــه مـــا اقتنـــى
وتـــدئى (٣٥) فتثكلـــه مـــا احتشـــد

زبنتهـــم أمـــس عـــن صرخـــد
ففضـــوا كـــأن نعـــامـــا شرد

ويـــوم العـــريمـــة أقبلتهـــم
عـــرامـــا يثعلـــب منـــه الأســـد

جنبـــت مليكهـــم في الصفـــاد
وعفـــوك عنـــه أعـــم الصفـــد

وقبـــل أزرتهم في الـــرهـــا
مـــوازق مـــزقـــن جـــرد الجرد

بقيـــت تـــرقـــع خـــرق الـــزمـــا
ن قيـــامـــا لابنـــائه إن قعـــد

تثقـــف مـــن زيغـــه مـــا التـــوى
وتصلـــح مـــن طبعـــه مـــا فســـد

وله فيه:

أيـا ملـك الـدنيـا الحلاحـل والـذي
لـه الأرض دار والبريـة أعبـد
وليسـت بـدعـوى لا يقـوم دليلهـا
ولكنـه الحق الـذي ليـس يجحـد
أخـو الغـزوات كـالعقـود تنـاسقـت
تحل بـأجيـاد الجيـاد وتعقـد
لسـان بـذكـر اللّـه يكسـو نهاره
بهاء وجفـن في الـدجـى ليـس يـرقـد
وبـذل وعـدل أغـرقـا وتـألقـا
فـلا الـورد مثمـود ولا البـاب مـوصـد
مـرام سمائي وحـزم مسـدّد
ورأي شهـابيّ وعـزم مـؤيـد

وله فيه:
أبـدا تنكـب عـن ضـلال سـادرا
بثقـوب زنـدك أو تـدل على هـدى
سـدت الكهـول مـن الملـوك مـراهقـا
وشـأوت شيبهـم البـوازل أمـرد
إن شيـدوا صرحـا أنـاف منـاره
أو يسجـدوا للكـاس جـدّد مسجـدا
وإذا استهـزتهم فـلا يـد معبـد
هـزتـه مـوعظـة فعـرّف معبـدا
قسما بشـام الشـام منـك مهنـدا
أرضـاه مشهـورا وراع مقلـدا
وتمسـك الاسـلام منـك بعـروة
اللّـه أبـرم حبلهـا فاستحصـدا

أشفـــى فكنــت شفـــاءه مـــن حـــادث
غـــاداه عـــارضـــه مـــردى بـــالـــردا
كنـــت الصبـــاح لليلـــه لما دجـــى
والغـــوث كـــف لظـــاه حين تـــوقـــدا
للـــه يـــوم أطلعتـــك بـــه النـــوى
يجتـــاب مـــن مهـــج الأصـــافـــر مجســـدا
نشـــوان غنتـــك الظبـــى مفلـــولـــة
وأمـــال عطفـــك الـــوشيـــج مقصـــدا
في معـــرك مـــا قـــام بـــأســـك دونـــه
إلا أقـــــــام المشركين وأقعـــــــد
ولكـــم مكـــرّ قمـــت فيـــه معلما
أرضـــــى إلهك والمسيـــــح وأحمدا
يـــوم العـــريمـــة والخطيـــم وحـــارم وشـــ
ـــعاب بـــاســـوطـــا وهـــاب وصرخـــدا
لا يعـــــدم الاشراك جـــــدّك أنـــــه
مـــا ســـلّ فيهـــم حـــاكما إلا اعتـــدى
أهمدتهم مـــن بعـــد مـــا مـــلأوا الملا
زجـــلا فهـــل كـــانـــت سيـــوفـــك مـــرقـــدا

طلعـــت نجـــوم الحق مـــن آفـــاقهـــا
وأعـــادهـــا كـــرّ العصـــور كما بـــدا
وهـــوى الصليـــب وحـــربـــه وتبختر الا
ســـلام مـــن بعـــد التـــأفـــف أغيـــدا
سبـــق المجلي للخطـــي فـــرفعـــه
نســـق فتـــم وقـــد رفعـــت بـــالابتـــدا

وله فيه:
محمـــود المربـــى على اســـلافـــه
إن زاد في حســـب الحسيـــب نجـــار

تقفو طريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى ادّعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقد دينه دينار
للّه ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أبيك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلو
ك تمنوا منونا وغرّوا غرورا
أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا
وجد إذا جدّ يوم الرها
ن أبقى لتاليه جدّاً عثورا
تصب عصاك على من عصاك
يوما عبوسا بها قمطريرا
لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينا وثيرا

تـــــداركـــــت أرمــــــاقــــه والقلـــو
ب نـــــوافــــر أن يستجــــنّ الصـــــدورا
أقمــت جثــاثـــا (٣٧) وكـــانــت جثــا
وشـــــدّت قصــــورا وكـــــانــــت قبـــورا
وكـــــم لــــك مــــن غضبــــة للهـــدى
تميـــــت الهوى وتجب الـــــذكــــورا
إذا قطـــــب اليـــــأس كـــــانـــــت ردى
و إن ضحـــــك العفـــــو عـــــادت نشـــورا
كملـــــت فـــــوقيـــــت عين الكمال
تبيـــــد السنين وتفنــــي العصـــــورا
وجـــــاد لنــــا بـــــك رب بـــــرا
ك للكفــــر نــــارا وللـــــديـــــن نـــــورا
إذا مــــا خـــدمــــت فمـــولى كـــريما
وأمـــــا عبـــــدت فعبـــــداً شكــــورا
امــــام المحـــاريــــب بـــرّا حصــــورا
وتحت الحروب هـــــزبــــرا هصــــــورا
تبـــارك مـــن شـــاد هـــذي الخلال
في ظلـــــه الملـــــك طـــــودا وقــــورا
وألـــــف في معقــــد التــــاج منــــــ
ـــــك سطـــــواً سعيراً وعفـــــوا نميرا

وله فيه:

عقــــــل الحق ألســـــن المدعينـــــا
أنـــــت خير الملــــوك دنيـــــا ودينـــــا
وأســـــد الانــــــام قــــــولا وأفعـــــا
لاً ونفســــــاً ونيـــــــة ويقينـــــا
أنـــــت أسنــــاهــــم أبـــــا و إبــــاء
وأمــــــر أحيـــــا وأمــــــرع حينـــــا

بسط الرزق في البسيطة كفاك
فكلتا يديك تلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنا
ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الأبحر
عامت في ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا
مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرعا مترعا ومنا مهنا
وربا عا فيحا وكفا البونا
ومحيا طلقا ومالا طليقا
وابتهاجا قصداً وحبلا متينا
بين ذب يميت عادية الشر
ك وهب يحيي به المسلمونا
تتسنى من الفتوح ألوفا
أنت أعلى من أن تعدّ المئينا
كلما اجتبت ثوب نصر عزيز
من مرام أقبلت فتحا مبينا

صرف اللّه عنك صرف الزمان
أنت علمت صرفه أن يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا
راً وعلّ لمنا بذيه الاجونا (٣٨)
وغدت حصنه على شرح هذا الد
ين من شكة الأعادي حصونا
كم تعالى صهيلها في ربى الشا
م فأعلى خلف الخليج الرنيينا
كان صنو الرشيد أبقاك للحك
مة والبأس بعده المأمونا

سمـــع اللـــــه فيـــك دعـــــوة سكــــن
أوطنـــــوا مـــــن حماك حصنـــــا حصينـــــا
غــــرّقتهـــم مـــدى الخطـــوب فـــأحييــــ
ـــــت رفــــاتــــا مـــــن التراب دفينـــــا
البســــواعـــدلـــك المديـــح فـــاختـــا
لـــــوابنـــــــات في وشيـــــه وبنينـــــــا
سهــــرت عينـــــك الكلـــؤ ونـــــامـــوا
تحت أكنــــــاف رعيهـــــــا آمنينـــــــا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نـور الدين دمشق، وبقي نـور الدين حياً بعدهما إحـدى وعشرين سنـة يترقى كـل عام في إزديـاد من جهـاد واجتهاد، ولو كـانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجـائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلـك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبى المجـد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:

تبـــدو الشجـــاعـــة مـــن طـــلاقـــة وجهـــه
كـــــالـــــرمـــــح دل على القســـــاوة لينـــــه
ووراء يقظتـــــــــــه أنـــــــــــاة مجرّب
للّـــــه سطـــــوة بـــــأســـــه وسكـــــونـــــه
هـــــذا الــــذي في اللـــــه صــــح جهـــــاده
هـــــذا الـــــذي بـــــاللّـــــه صـــــح يقينـــــه
هـــذا الـــذي بخـــل الـــزمـــان بمثلـــه
وا لمشمخـــــــر إلى العلى عــــــــرنينـــــــه
ملـــك الـــــورى ملـــك أغـــــرّ متـــوّج
لاغـــــدره يخشـــــى ولاتلـــــوينـــــه
إن حـــــلّ فـــــالشرف التليـــــد أنيســـــه
أو ســـار فـــالظفـــر الطـــريـــف قـــرينـــه
فـــالـــدهـــر خـــاذل مـــن أراد عنـــاده
أبـــــدا وجبـــــار السماء معينـــــه

ملك إذا تليت مآثر قومه
كسد اللطيم وهجن النوار

ملأ الفرنجة جور سيفك فيهم
فلهم على سيف المحيط جوار

يوما يزيرك جوف عرقة معلما
جوف له خلف الدروب أوار

وتجر في الأردن فضل ذيله
نقع بأكناف الأرنط مثار

إما تبيح حريم أنطاكية
أو يفجأ الداروم منك دمار

عفى جهادك رسم كل مخوفة
وصفت بصفوة عدلك الاكدار

ومحا المظالم منك نظرة راحم
للّه في خطراته أسرار

غضبان للاسلام مال عموده
فلنوره مما عراه نوار

وجذمت كل يد تسور على يد
فاحلت ذاك السور وهو سوار

لم يبق ماكس مسلم شلقا(٣٦) ولا
ساع لمظلمة ولا عشار

همدوا كما همدت ثمود وقادهم
بخسارهم مما أتوه قذار

العار في الدنيا شقوا بلباسه
ولباسهم يوم الحساب النار

كم سيرة أحييتها عمرية
رفعت لها في الخافقين منار

ونوافل صيرتهنّ لوازما
بأقلها تستعبد الأحرار

والــــديــــــن يشهـــــد أنـــــه لمعــــزه
والشرك يعلـــــــم أنــــــه لمهينــــــــــه
مـــــازال يقســـــم أن يبـــــدّد شملــــــه
واللّـــــــه يكــــــره أن تمين يمينــــــــه
فتــح الــرهـــا بــالأمــس فــانفتحــت لــه
أبـــــواب ملــــك لا يـــــزال مصـــــونـــــه

وممادح نور الـدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافـظ أبو القاسم أنـه كان قليـل الابتهـاج بـالشعـر، ومات حـادي عشر شـوّال سنـة تسـع وستين وخمسمائة، ودفـن بقلعـة دمشــق، ثـم نقـل إلى قبتـه بمــدرستـه بجـوار الخواصين.

قلـت :وقد جـرّب استجابـة الدعـاء عنـد قبره، وهذا ذكـر طرف مـن مناقبـه جملة ، ونحن بعد ذلـك نأتي بأخبـاره وأخبار سلفه مفصلة مـرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

## فصل

أصل البيـت الأتابكـي هو قسيـم الدولـة آق سنقر جـدّ نور الـدين، فنذكره وما تـم في أيامه، ثم نذكر ولـده زنكي وما تم في أيامه، ثـم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعـده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقـر تركيا مـن أصحاب السلطان ركـن الدين ملكشـاه بن ألـب أرسلان ، وهـو عـم دقاق بـن تتـش بن ألـب أرسـلان الذي كـان سلطـان دمشق، وقبره بقبـة الطواويـس بها، بنتـه والمشهد والـدته، وكـان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويـه بالعراق، فكان قسيـم الدولة من أصحـابه وأترابه وممـن ربي معه في

صغـره، واستمرّ في صحبتـه إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنـة بعد أبيـه إليه جعلـه من أعيـان أمرائه، وأخـص أوليائه، واعتمـد عليه في مهماتـه، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظـام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنـه من المملكة، فأشـار نظام الملك على السلطـان أن يولي آق سنقـر مـدينـة حلـب وأعمالها، وأراد بـذلـك أن يبعـده عـن خـدمـة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قـال ابن الاثير: ومـن الدليـل على علوّ مـرتبتـه، تلقبه قسيـم الدولـة، وكانـت الألقاب حينئـذ مصونـة لاتعطى إلا لمستحقيهـا. وفي سنة سبـع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشـاه الوزيـر فخر الـدولة بـن جهير، وكان زوج ابنـة نظام الملك إلى الموصـل، وسير معه جيشـاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيـم الدولة آق سنقر فسار نحـو الموصل، ولقيهم في الطريـق الأمير أرتق التركماني جـدّ ملوك الحصـن وماردين فإستصحبـوه معهم، فحصروا الموصل ، وحـاربوا من بها وتسلموها، وسـار صاحبها إلى السلطان فـردّها عليـه وكانت يـومئذ لأحد أمـراء بني عقيـل، وهو شرف الـدولة مسلـم بن قـريش بـن بدران العقيلي، وكـان ملكه مـن السنديـة بالعـراق على نهر عيسى إلى منبـج وما بينهما مـن البلاد الفـراتية: كهيـت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيـرة بأسرها، وملك مدينة حلـب، وكان عـادلاً حسن السيرة، عظيـم السيـاسة واتفـق ان وقع بينـه وبين صاحب أنطـاكية خلاف، وذلك أن أنطـاكية كان الروم قـد استولوا عليها سنـة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالـوا بها إلى هذه السنـة، ففتحها سليمان بـن قتلمش، وهـو جدّ الملـك غيـاث الديـن كيخسرو، صاحـب قونية وغيرهـا، وكان لشرف الدولة صـاحب حلب على صاحـب أنطاكية الـرومي جـزية يـأخذهـا كـل سنة، فـانقطعت عنـه بسبب أخـذ سليمان البلاد، فأرسـل شرف الدولة يطلب منـه ما كان يأخـذه من الروم وتهدّده، فقـال: أنا في طـاعتك وهـذا الفتح بسعـادتك، والخطبـة والسكة لـك ، ولست بكافر حتـى أعطيك ما كنت تأخذه من الـروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

## فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى اللّه وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر لبك أوّل الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه،إلى حد لايقدر السلطان على خلافه، لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألوفا، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردّها غيرة منه إلى الصدف

## فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر ممايلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

# ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأ-بِه، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية، فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم، والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت الله إلا صائما فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله، فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابن الاثير: حدثني والدي رحمه الله قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ».فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسيرمعه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها، وقتل من بها من الفرنج والأرمن ، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سميساط وهي أيضا للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه من الفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

## فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولـد الملك العادل نور الـدين محمود ابن زنكـي رحمه الله، وفيها غـرقت سنجار مـن سيل المطر، وهلـك منها خلق كثير، ومن أعجـب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيـه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفـل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غيـاث الدين محمد بـن ملكشاه، وعمـره سبع وثلاثـون سنة وأربعـة أشهر وستـة أيام ، وأول ما خطـب له ببغـداد في ذي الحجة سنـة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عـدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار مـا لم يلقه أحد إلى أن توفي أخـوه بركياروق، فحينئذ استقـرت له السلطنة وصفت لـه ودانت البلاد، وأصحاب الاطـراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليـه بعد موت أخيه اثنتـي عشرة سنة وستـة أشهر، وكـان عادلاً حسـن السيرة شجاعـا، وأطلق المكـوس والضرائب في جميع البـلاد، ومن عـدله أنـه اشترى عدة مماليك من التجـار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستـان، فأوصل إليه البعض، ومطل البـاقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخـذ غلام الحاكم ووقف بطـريق السلطان، واستغـاث إليه، فأمر مـن يستعلم حالـه، فعاد الحاجب وأعلم السلطـان حاله، فعظم عليه وضـاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجـر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكـم، وكان يقـول كثيرا: لقد نـدمت على تـركي حضـور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلـة ذخرها الّله تعالى للبيت الأتـابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك.

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إنهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حدّ خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مضر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي . القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن»يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير:رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

## فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قا. صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد باللّه بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد، وصار معه في خواص أصحابه، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود، وأمر السلطان محمد للبرسقي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعى زنكي من البصرة ليسسير معه إلى الموصل ، فقال زنكي لأصحابه : قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة، وتارة بالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطان عن يمينه لايتقدم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليها وأقطعه إياها لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي، وقت اختلاف العساكر والحروب، ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله، وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد باللّه نفرة، فتهدّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد، وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق، يؤمن معه من الخليفة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكي مضافا إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد صلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه اللّه، وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة، لايستعين في وضوئه

بـأحد، فقـرّر السلطان ولـده عـز الديـن مسعـود على ما كـان لأبيه مـن الأعمال، وهـي الموصـل وديار الجزيـرة وحلـب وحماه وجـزيرة ابـن عمـر وغيرها، وكان شـابا عاقلا فضبط البـلاد، فلم تطل أيامه وتـوفي ســـنة إحـدى وعشريـن، وولي الأمـر بعده أخـوه الصغير، وقـام بتـدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهـو مملوك تـركي مـن ممالـيك أبيهما، فجرت الأمـور على أحسن نظام.

# فصل

## في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـي تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء اللّه تعالى.

## فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولايـة حـارم، فـأجـابهم إلى ذلـك، لأن عسكــره كـان قـد كثـرت فيهـم الجراحات والقتـل، فأراد أن يستريحوا، فهـادنهم، وعاد عنهـم، وقد أيقـن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استـولى زنكي على مدينـة حماه وما فيهـا، وكان فيها بهاء الـدين سونج بن تـاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثـم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صـدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزمـا، فطلبه زنكي وأطلـق من كان عنـده من سـونج وأصحابـه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطـان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشريـن سنة، وكانت ولايته ما يقـارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كـريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلـب السلطنة بعـده ولده داود ابن محمـود، وأخواه مسعـود وسلجوق شاه ابنـا محمد، وعمهما سنجـر بن ملكشـاه، ومعـه طغــرل بـن السلطـان محمـد، فجـرت بينهـم حـروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابـن أخيه طغرل بـالسلطنة في همذان، وأصفهان والـري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبـع وعشرين سـار الخليفة المسترشـد بنفسه إلى الموصـل في ثلاثين ألـف فارس، فحصرهـا ثلاثـة أشهر، ثـم عاد إلى بغـداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنـة تسـع وعشريـن استـولى زنكـي على سـائر قـلاع الحميـديـة وولاياتهم منها قلعـة العقر، وقلعة شوش، وحـاصر مدينة آمد، ثـم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحـرم سنة تسـع وعشريـن توفي السلطـان طغـرل بـن محمد بـن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمة أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالّله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر الله، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهزم الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

## فصل

## في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر اللّه تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم
تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمّل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الافاق حينا
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

ومـــاذمّ فيهـــا العيـــش حتـــى صـــدمنـــه
فمال جنـــاح الجيـــش وانكسر القلـــب

فـــولى وأطـــراف الـــرمـــاح كـــأنها
نجـــوم عليـــه بـــا المنيـــة تنصـــب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

ومـــا يـــوم كلـــب الـــروم إلا أخـــو الـــذي
أزحـــت بـه مـــا في الجنـاجـــن (٣٩) مـن نبـــل

اتـــاك بمثـــل الـــروم حشـــدا وإنـــه
ليفضـــل اضعـــافـــا كثيرا عـــن الـــرمـــل

فقـــاتلتـــه بـــاللّـــه ثـــم بعـــزمـــة
تصـــك قلـــوب العـــاشقين بما يسلي

تـــوهـــم أن الشـــام مـــرعـــى ومـــادرى
بـــأنـك أمضـــى منـــه في الشـزر والسحـــل (٤٠)

فطـــــــار وخير المغنمين ذمـــــــاؤه
إذا اراد عنـــــه مغنـــــم المال والأهـــــل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري قاضي

الممالـك الأتابكيـة، وكان أعظـم الناس منـزلـة عنده، وفيهـا ولد صـلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

## فصل

## في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها ومـا يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجـق بن أرسـلان تاش التركماني، وكـان ملكها نـافذ الحكـم على قاصي التركمان ودانيهـم، يرون طاعته فـرضاً حتماً، فتحامى الملـوك قصد ولايته، ولم يتعـرّضوا لها لحصانتهـا، فعظم شـأنه وازداد جمعه، فلما كـانت سنة أربـع وثلاثين بلـغ الشهيد أتابـك عنه مـا اقتضى أن يقصـد بلاده، فهزم عسكـره وملك بلاد شهـر زور وغيرها، فـاضافها إلى بـلاده وأصلح أحـوال أهلهـا وخفف عنهـم مـا كـانـوا يلقـونه مـن التركمان، وعـاد إلى الموصل عـازماً على المسير إلى الشـام، فإنـه كان لايـرى المقام بـل لايزال ظاعنـا إما لـردّ عدوّ يقصـده، وإما لقصد بـلاد عدوّ وإمـا لغزو الفـرنج وسدّ الثغـور، وكانت ميـاثـر السروج آثر عنده من وثير المهـاد، والسهر في حراسـة المملكة أحب إليـه من عرض الـوساد، وأصوات السـلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هـذه السنة وهـي سنـة أربع وثـلاثين ولـد تقي الـديـن عمر بـن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سـار الشهيد في جنـوده بعد ملـك شهر زور إلى مـدينة دمشـق فحصرهـا، وصاحبهـا حينئذ جمال الـديـن محمد بـن بوري بـن طغتكين، وكـان محكومـا عليـه، والغالـب على أمـره معين الديـن أنـر مملوك جـدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الديـن أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولىّ قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الـدين: سألتك بحياة المولى أتابـك ألا صلبتني قبل ولـدي لئلا أراه يعـالج سكـرات الموت، وكان نجـم الديـن أيوب واقفـاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الديـن في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابـك، فذهب نجم الديـن إلى أتابك وسألـه في الشيخ وولده وقص عليه ما قـاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقـي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبـك، وقيل إن نجـم الدين قـد ورد على أتابـك وهو قـد ملك بعلبك فسألـه في الأمراء فأطلقهم لـه وولاه بعلبك وكتب له ثلثهـا ملكاً، واستقر فيهـا هو وأهله، ولم يـزل بها إلى أيام نور الـدين محمود بـن زنكي فأخـرجه منها على ما سنـذكره، ثم إن أتـابك بعد ملكه بعلبـك سار إلى دمشـق فنـزل البقاع، فـوردت هـديـة صـاحـب دمشق، ويطلـب العـود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشـار نجم الدين على زنكي بقبول ذلـك وقال: هذا مـال كثير، وقد حصـل بلا تعب، وبلـد كبير بلا عنـاء، ودمشـق بلـد عظيـم وقـد ألـف أهلـه هــذا البيـت وتمرّنـوا على سياستهـم، وقد بلغتهم الأحـوال التي جرت ببعلبـك، فامتنع زنكـي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

- ٥٩١ ٧ -

# فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنى ينفع الحذر
وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر

سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سناه يبرق البصر

ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر

وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر

وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
يخاف والكفر لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر

والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا

ولا انثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كان وإن كانوا به نصروا

حتى تعود ثغور الشام ضاحكة
كأنما حلّ في أكنافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها
ودام لنقضك ابرامها
وزلت لعيشك أقدامها
وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم إليك القلو
ب هواها لما صح إسلامها
أيا محيي العدل لما نعا
ه أيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمّة
أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تقتفيك الاسو
د والبيض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو
ف حتى تشاءمها شامها
وصارت عواري أكتافه
متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا( وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـانا آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العسـاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العـامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخـرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعـرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفـرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيـد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانـه في ذلك، فأمرني بتسييرهـم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنـج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينـالوا منهـا غـرضا، ويـأمـرني بترك استصحاب العسـاكـر، فلما خوطـب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهـاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذهـا، وكان قصده أن تطأ عساكـره البلاد بهذه الحجة فيملكهـا،فلم أزل أتوصـل مع الوزيـر وأكابرالـدولة حتـى أعدت العساكـر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فـانظروا إلى هذا الرجل الـذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعنـي كمال الدين - رحم اللـه الشهيد، فلقد كان ذا همة عـالية ورغبة في الرجـال ذوي الرأي والعقل يرغبهـم ويخطبهم من البلاد ويـوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قـال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الديـن يحصل له في كـل سنة منـك ما يـزيـد على عشرة آلاف دينار أميريـة وغيره يقنع منـك بخمسمائة دينار، فقـال لهم: بهذا العقل والـرأي تدبـرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ لـه هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فـان شغلا واحد يقوم فيـه كمال الدين خير مـن مائة ألـف دينار، وكان كما قـال رحمه الله تعالى.

# فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول اللّه لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

# فصل

## في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

وألسنــــة مـــن العـــذبــات حمر تخاطبنـــابـــأفـــواه الـــريـــاح
وأروع جيشــــه ليـــل بهيـــم وغـــرّتـــه عمـــود للصبـــاح
صفـــوح عنـــد قـــدرتـــه ولكـــن قليـــل الصفـــح مـــا بين الصفـــاح
وكـــان ثبـــاتـــه للقلـــب قلبـــا وهيبتـــه جنـــاحـــا للجنـــاح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد اللّه بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواني أن أتابك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يازنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الّله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلاّ جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن الله ما لا يستطاع زياده

ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده

وفتح حديث في السماع حديثه
شهي إلى يوم المعاد معاده

أراح قلوباً طرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فؤاده

لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده

يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنه ولاده

مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفل حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفاً سواده

وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده

فأوسعها حر القراع مؤيد
بصير بتمرين الألد لداده

كأن سنا لمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديه زناده

فأضرمها ناري حرب وخدعة
فما راع إلا سورها وانهداده

فصدت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتماً نفاده

فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فــلا مطلــق الا وشــدّ وثــاقــه
ولا مــوثــق إلّا وحــل صفــاده

ولا منبر إلاّ تــرنــح عــوده
ولا مصحــف إلاّ أنــار مــداده

فــان يثكــل الابــرنــز(٤٢) فيهــا حيــاتــه
و إلأقفــل للنجــم كيــف سهــاده

وبــاتــت سرايــا القمــص تقمــص دونها
كما يتنــزاعــن حــريــق حــراده

إلى أيــن يــا أسر الضــلالــة بعــدهــا
لقــدذلّ غــاويكــم وعــز رشــاده

رويــدكــم لامــانــع مــن مظفــر
يعــانــد أسبــاب القضــاء عنــاده

مصيــب سهــام الــرأي لــو أن عــزمــه
رمــى ســد ذي القــرنين أصمــى ســداده

وقــل للمــوك الكفــر تسلــم بعــدهــا
ممــالكهــا إن البــلاد بــلاده

كــذا عــن طــريــق الصبــح فلينتــه الــدجــى
فيــاطــا لما غــال الظــلام امتــداده

ومــن كــان امــلاك السمــوات جنــده
فــأيــة أرض لم تــرضهــا جيــاده

وللّــه عــزم مــاء سيحــان ورده
وروضــة قسطنطينيــة مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:
هــي الجنــة المأوى فهــل مــن خــاطــب..

يقول فيها:

إن الصفــائح يــوم صــافحــت الــرهــا
عطفــت عليهــا كــل أشــوس نــاكــب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب

للّه أية وقفة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب

ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب

وأمدّكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محثوثة بكتائب

جنبوا الدبور وقد تمم ريح الصبا
جند النبوّة هل لها من غالب

أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب

لا أين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب

أفغرّكم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير:

صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي اعطاكه اللّه

يا صارما بيمين اللّه قائمه
وفي أعالي أعادي اللّه حدّاه

أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه إذا الأملاك أشباه

فداك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قــل لـــلاعــادي ألا مــوتــوا بـــه كمـــد
فـــاللّـــه خيبكـــم واللّـــه أعطــاه

ملـــك تنـــام عــــن الفحشـــاء همتـــه
تقـــى وتسهـــر للمعـــروف عينـــاه

مـــازال يمســـك والأيـــام تخدمـــه
فيما ابتـــلاه وتـــدني مـــا تـــوخـــاه

حتـــى تعـــالـــت عـــن الشعـــرى مشـــاعـــره
قـــدرا وجـــاوزت الجوزاء نعـــلاه

وقـــد روى النـــاس أخبـــار الكـــرام مضـــوا
وأيـــن ممـــا رووه مـــا رأينـــاه

أيـــن الخلاف عـــن فتـــح أتيـــح لـــه
مظلـــل أفـــق الـــدنيـــا جنـــاحـــاه

على المنـــابـــر مـــن أنبـــائه أرج
مقطـــوبـــة بفتيـــت المســـك ريـــاه

فتـــح أعـــاد على الاســـلام بهجتـــه
فـــافتر مبسمـــه واهتـــز عطفـــاه

يهدي بمعتصـــم بـــاللـــه فتكتـــه
حـــديثهـــا نســـخ الماضي وأنســـاه

إن الـــرهـــا غير عمـــوريـــة وكـــذا
مـــن رامهـــا ليـــس مغـــزاه كمغـــزاه

أخـــت الكـــواكـــب عـــزامـــا بغـــى أحـــد
مـــن الملـــوك لها وقما [٤٤] فـــواتـــاه

حتـــى دلفـــت لها بـــالعـــزم يشحـــذه
رأي يبيـــت فـــويـــق النجـــم مسراه

مشمـــرا وبنـــو الاســـلام في شغـــل
عـــن بـــدء غـــرس لهم أثمار عقبـــاه

يـــا محيـــي العـــدل إذ قـــامـــت نـــوادبـــه
وعـــامـــر الجود لما امّـــح مغنـــاه

يـــا نعمـــة اللّـــه يستصفـــى المزيـــد بها
للشـــاكـــريـــن ويستقنـــى صفـــايـــاه
أبقـــاك للـــديـــن والـــدنيـــا تحوطهما
مـــن لم يتـــوّجـــك هـــذا التـــاج إلاّ هـــو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:
أيـــا ملكـــا ألقـــى على الشرك ككـــلا
أنـــاخ على آمـــاتـــه كلكـــل الثكـــل
جمعـــت إلى فتـــح الـــرهـــاســـدّ بـــابـــه
بجمعـــك بين النهـــب والاسر والقتـــل
هـــو الفتـــح أنســـى كـــل فتـــح حـــديثـــه
وتـــوج مسطـــور الـــروايـــة والنقـــل
فضضـــت بـــه نقـــش الخواتـــم بعـــده
جـزيـت جـزاء الصـدق عـن خـاتـم الـرسـل
تجرّدت لـــلاســـلام دون ملـــوكـــه
تبثـــك أسبـــاب المذلـــة والخذل
أخـــو الحرب غـــذتـــه القـــراع مفطما
يشـــوب بـــاقـــدام الفتـــى حنكـــة الكهـــل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الـــديـــن أضحـــت عـــروة الـــديـــ
ـــن معصـــوبـــاً بها الفتـــح المبين
واستـــزادت بقسيـــم الـــدولـــة القســـ
ـــم مـــن ادحـــاض كيـــد المارقين
ملـــك اسهـــر عينـــا لم يـــزل
همهـــا تشريـــد همّ الـــراقـــديـــن
لاخلـــت مـــن كحـــل النصر فقـــد
فقـــأت غيضـــا عيـــون الحاســـديـــن

كــل يــوم مــر مــن أيــامــه
فهــو عيــد عــائد للمسلمين
لــو جــرى الانصــاف في أوصــافــه
كــان أولاهــا أمير المؤمنين
مــاروى الــراوون بــل مــا سطــروا
مثــل مــا خطــت لــه أيــدى السنين
إذا نــاخ الشرك في أكنــافــه
بمئــي ألــف تــلاهــا بمئين
وقعــة طــاحــت بكلــب الــروم مــن
قطعــة البين إلى قطعــة الــوتين
إن حمت مصر فقــد قــامــلها
واضــح البرهــان إن الصين صين
والــرهــا الــو لم تكــن إلاّ الــرهــا
لكفــت حسماً لشــك الممتريــن
هــم قسطنطين أن يفــرعهــا
ومضــى لم يحو منهــا قســطين
ولكــم مــن ملــك حــاولها
فتحــلا الحين وسما في الجبين
هــي أخــت النجــم إلاّ أنها
منــه كــالنجــم لــرأي المبصريــن
زارهــا يــزأر في أســد وغــى
تبــدل الأســد مــن الــزأر الأنين
صــولجوابــالبيــض بضرب نثــ
ــر الهام في ســاحــاتها نثــر الكــريــن (٤٥)
يــا الهاهمة ثغــر أضحكــت
مــن بنــي القلــف ثغــور الشــامتين
بــرنســت رأس بــرنــس ذلــة
بعــد مــا جــاســت حــوايــا جــوسلين

سروج مــــذ وعــــت أسراجــــه
فــــرقــت جماعهـــاعنهـــاعضين
تلــك أقفــال رمــاهــا اللّــه مــن
عـــزمـــه الماضي بخير الفـــاتحين
شــام منــه الشــام بــرقــاودقــه
مـــؤمـــن الخوف مخيــف الآمنين
كــم كنيــس كنســت قــدرامهــا
منــه بعــد الــروح في ظــل السفين
دنــت الآجــال مــن آجــالها
فــأحلتهــا القطــا بعــد القطين
ومنــار يجتلى صلبــانــه
بين بيــض تتبــارى في البريــن
قــرعتــه البيــض حتــى بــدّلــت
قــرعــة النــاقــوس تثــويــب الأذيــن
بــالقسيميــات مقســوم لها الــ
ــدهر في علــك الجين أو الحين
سبــل بها حــرّان كــم حــرّى سقــت
بــردا مــن يــوم ردت مــارديــن
شمطــت أمــس شميشــاط بها
نظــم جيــش منهــج للنــاظــريــن
وغــدا يلقــي على القــدس لها
كلكــل يــدرسهــا درس الــدريــن
همة تمسي وتضحــي عــزمــة
ليــس حصــن إن نحتــه بحصين
قــل لقــوم غــرّهــم امهــالــه
ستــذوقــون شــذاه بعــد حين
إنــه الموت الــذي يــدرك مــن
فــرّ منــه فشجــا اللغــافلين

وهـــو يحيـــى ممسكـــا عـــروتـــه
إنها حبـــل لمن تـــاب متين

مـــن يطـــع ينـــج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــن غـــداة عبرة لـــلآخـــريـــن

بـــك يـــا شمـــس المعـــالي ردّت الـــ
ـــروح في الميتين مـــن دنيـــا وديـــن

أقســـم الجدّ بـــأن تبقـــى لكـــي
تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين

وتفيـــض العـــدل في أقطـــارهـــا
منسيـــا مـــؤلم عســـف الجائريـــن

لا تـــزل دارك كيـــف انتقلـــت
كعبـــة محفـــوفـــة بـــالطـــائفين

كـــل يـــوم يتحلى جيـــدهـــا
مـــن نظيـــم المدح بـــالـــدرّ الثمين

كلما أخلـــص فيهـــا دعـــوة
لـــك قـــالـــت ألســـن الخلـــق آمين

## فصل

لما فرغ الشهيد مـن أخذ الرها واصلاح حالها والاستيـلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفـرات، وهو لجوسلين أيضـا فحصره وضـايقه فـأتـاه الخبر بقتـل نائبـه بالموصل والبلاد الشرقيـة نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحـل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البـلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحـل عنها سير اليها حسـام الدين تمرتاش بـن إيلغازي صـاحب مـاردين عسكـراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعـدة سنة تسع وثلاثين ، وسببـه أن الملك ألـب أرسـلان المعـروف بـالخفاجـي ولـد السلطـان مسعـود، وأصحـاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود ،فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولايجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهر زوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها،وحينئذ يستقرّ له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرّفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غيرالطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ماذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهينه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يـــــابـــــدر لاأفـــــل ولا محاق
ولا يـــــرم مشرقـــــك الاشراق

بـالـديـن والـدنيـا الـذي يشكـو وهـل
يهتـز فـرع لم يقمـه سـاق

لـن تـورق القضـب ويجري مـاؤهـا
إلاّ إذا مـا التـاثـت الأعـراق

إنّ الـرعـايـا مـا سلمـت في حمى
للخطـب عـن طـروقـه إطـراق

غـرسـت بـالعـدل لهم خمائلا
تـرتـع في حـديقهـا الأحـداق

يـا هضبـة الـديـن التـي عـاذ بها
فعـاد لا بغتـا ولا ارهـاق

لـو لم تحطـه راحـلا وقـافـلا
أصبـح لا شـام ولا عـراق

عماد ديـن مـذ أقـام زيغـه
حيـى ومـات الشرك والنفـاق

يـا محيـي العـدل الـذي في ظلـه
تسر بلـت زينتهـا الآفـاق

يفـديـك مـن لان مهـاد جبينـه
لما نبـا بجنبـك الاقـلاق

مـن يشـأ سيفـك أنبطـت لـه الـ
ـعذب ومـاء عيشـه زعـاق

تجرّع السـم ولـو لم تحمـه
بحـده لعـزه الـدريـاق

ملـوك أطـراف حمى أطـرافهـا
عـزمـك هـذا الـلاحـق السبـاق

لـو لم تـرق مـاء كـرى العين لما
سـاغـت بـأفـواههـم الاريـاق

شققـت مـن دونهم مـرج الـردا
وشـق أكبـادهـم الشقـاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصرا ولا جانبها الاخفاق

توهموها غسقا ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

# فصل

## في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقـــى الحمام ولم أكــــن مستيقنـــا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة(٤٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.(٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم».

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

## فصل
## في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأمـلاك لأصحاب السلطـان ظلموا الـرعيـة وتعدّوا عليهـم وغصبوهـم أمـلاكهم، ثـم ذكر مـا تجدّد في أيامـه من عمارة البـلاد لاسيما بالموصـل، وذلك لحسـن سيرته، فكـان يقصده النـاس ويتخذون بـلاده دار إقامـة، وهو الـذي أمر ببنـاء دار المملكة بـالموصل، ولم يكـن بها للسلطان غير الدار المعروفة بـدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورهـا، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكـانت الموصل أقل بـلاد اللّه فاكهـة، وكان الذي يبيع الفـواكه يكون عنـده مقراض يقص به العنـب لقلته إذا أراد أن يزنـه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومـن أحسن آرائه أنه كـان شديد العنايـة بأخبار الاطـراف، وما يجري لأصحـابها حتى في خلـواتهم، لاسيما دركاه السلطـان، وكان يغـرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره مـن حرب وسلم وهزل وجـد وغير ذلك، فكان يصـل إليه كل يوم مـن عيونه عدّة قـاصدين، وكان مـع اشتغاله بالأمـور الكبار من أمـور الـدولـة لايهمـل الاطـلاع على الصغير، وكـان يقـول :إذا لم يعـرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكـان لايمكن رسـول ملـك يعبر في بـلاده بغير أمره، وإذا استـأذنـه رسول في العبـور في بلاده أذن له وأرسـل إليه من يسيره، ولايتركـه يجتمع بأحـد من الـرعية ولاغيرهم، فكـان الرسول يـدخل بـلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكـان يتعهد أصحـابه ويمتحنهـم : سلـم يومـا خشكنانكـة(٥٠)إلى طشت دار لـه، وقال: احفظ هـذه فبقي نحـو سنة لايفارق الخشكنـانكة خـوفاً أن يطلبهـا منـه، فلما كان بعـد ذلـك قال لـه: أيـن الخشكنانكـة،

فأخرجها في منديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكالهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشاميـة لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكى لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذراملك هو الدهـ
ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل
أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخرّا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من
هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما لفحتهم نا
ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ
ـت على الدين سحابا
جاعلا من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الامـ
ـن الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إنّ أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتلّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها لأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظـــالم قـــوم حين يـــذكـــر عـــدلـــه
فقـــد زال عنهـــم ظلمـــه وخصـــائمـــه
وأصبـــح سلطـــان البـــلاد بسيفـــه
وليـــس لـــه فيهـــا نظير يـــزاحمه
وزاد على الامـــلاك بـــأســـا وسطـــوة
ولم يبـــق في الأمـــلاك ملـــك يقـــاومـــه
فلما تنـــاهـــى ملكـــه وجـــلالـــه
وراعـــت ولاة الارض منـــه لـــوائمـــه
أتـــاه قضـــاء لاتـــردّ سهـــامـــه
فلـــم تنجـــه أمـــوالـــه ومغـــانمـــه
وأدركـــه للحين فيهـــا حمامـــه
وحـــامـــت عليـــه بـــا لمنـــون حـــوائمـــه
وأضحـــى على ظهـــر الفـــراش مجدّلا
صريعـــا تـــولى ذبحـــه فيـــه خـــادمـــه
وقـــد كـــان في الجيـــش اللهـــام مبيتـــه
ومـــن حـــولـــه أبطـــالـــه وصـــوارمـــه
وسمـــر العـــوالي حـــولـــه بـــأكفهـــم
تـــذود الـــردى عنـــه وقـــد نـــام نـــائمـــه
ومـــن دون هـــذا عصبـــة قـــد تـــرتبـــت
بـــأسهمهـــا يـــردى مـــن الطير حـــائمـــه
وكـــم رام في الأيـــام راحـــة سرّه
وهمتـــه تعلـــو وتقـــوى شكـــائمـــه
وكـــم مسلـــك للسفـــر آمـــن سبلـــه
ومسرح حـــيّ لـــن تـــراع ســـوائمـــه
وكـــم ثغـــر اســـلام حـــواه بسيفـــه
مـــن الـــروم لما أدركتـــه مـــراحمه
فمـــن ذا الـــذي يـــأتي بهيبـــة مثلـــه
وينفـــذ في أقصـــى البـــلاد مـــراسمـــه

فلـــو رقيـــت في كــــل مصر بـــذكـــره
أراقمـــــه ذلـــــت هنـــــاك أراقمـــــه

فمـن ذا الـــذي ينجــو مـــن الـــدهــر سـا لما
إذا مــــا أتـــاه الأمــــر واللّـــه حــــاتمه

ومـــــن رام صفــــواً في الحيـــاة فما يـــرى
لــــه صفــــو عيـــش والحمام يحاومـــــه

فـــإيـــاك لا تغبـــط مليكـــاً بملكـــه
ودعــــه فــإنّ الـــدهــر لا شـــك قــاصمـــه

وقـــل للـــذي يبنـــي الحصـــون لحفظـــه
رويـــدك مـــا تبنـــي فـــدهـــرك هـــادمـــه

وفي مثـــل هـــذا عبرة ومـــواعـــظ
بها يتنـــاســـى المرء مـــا هـــو عـــازمـــه

قـال: وفي ثامـن عشر جمادى الآخرة مـن السنة وصـل الخادم يرنقـش القاتـل لعماد الدين زنكـي وانفصل مـن قلعة جعبر لخوف صاحبهـا من طلبه، فـوصل دمشق ميقنـا أنه قد أمـن بها، ومدلاً بما فعله وظنـاً منه أن الحال على ما توهمه فقبـض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبـة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلـت : وللحكيم أبي الحكـم المغـربي قصيـدة في مرثيـه الشهيـد عماد الدين زنكي رحمه الله منها:

عين لا تـــــذخـــري المدامــــع وابكــــي
واستهلي دمـــــا على فقـــــد زنكـــــي

لم يهب شخصـــه الـــردى بعـــد أن كـــا
نـــت لـــه هيبـــة على كـــل تـــركـــي

خير ملـــــك ذي هيبـــــة وبهاء
وعظيـــم بين الانـــــام بـــــزرك(٥٢)

يهب المال والجيـــــاد لمن يمـــــ
ـــه مـــادحـــا بغير تلكـــي

إن دارا تمدّنــــابـــالــــرزايـــا
هــــي عنـــــدي أحــــق دار بترك
فـــاسكبـــوا فـــوق قبره مـــاء ورد
وانضحـــوه بـــزعفـــران ومســـك
أيّ فتـــك جـــرى لـــه في الأعـــادي
بعـــد مـــا استفتـــح الـــرهـــا أيّ فتـــك
كـــل خطـــب أتـــت بـــه نـــوب الـــدهـــ
ـــر يسير في جنـــب مصرع زنكـــي
بعـــد مـــا كـــاد أن تـــديـــن لـــه الـــرو
م ويحوي البـــلاد مـــن غير شـــك

# فصل
# فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصده إلى الموصل وقد انضوى اليه جلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأوّل، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره ومشىّ أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود، وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا نبقي به الملك في أولاد صاحبنا،ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقالا له: إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقا، وقرّ بهما طمعا أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين بالموصل يعرّفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ من الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئا فمنعه خوفا من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد،وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدّة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار،فأرسل إلى دزدارها وقال له: لاتسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير:فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيـــا خير الملـــــوك أبــــا وجــــدّا
وأنفعهـــــم حيــــا الغليـــــل صــــاد

علــــوا وغلـــوا وقـــــال النـــاس فيهـــم
شــــواردمـــــن ثنـــــاء أو أحـــــاد

ومــــا اقتسمـــوا ولا عمــــدوا بنــــاهـــم
بمنصبـــــك القسيمـــــــي العمادي

وهـــــل حلـــب سـوى نفـــس شعــــاع
تقسمهـــــا التمادي والتعـــــادي

نفـــى ابـــن عمادالـــديـــن عنهـــا الـــ
شكـــــاة فــــأصبحـــــت ذات العماد

تبختر في كســـــاء عـــــدل وبــــــذل
مـــــدبجـــــة التهـــائم والنجـــــاد

وفي محرابها داود منـــــــــــــــــــــه
يهذب حكمــــــة آيـــــات صــــاد

تجاوزت النجـــوم فــــأيــــن تبغـــــي
تــــرق فــــلا خلــوت مــــن ازديـــاد

# فصل
# فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عا لما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبى بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بما قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنـة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبـى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــا آن أن يـــــزهـــق البـــاطـــل
وأن يتجـــــز العـــــدّة الماطـــــل

إلى كـــم يغــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــاكـــافـــل
فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــدزأر الاســـدالبـــاســـل
وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل
أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل
فـــامـــانصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل
ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــانـــالـــه الملك العـــادل
فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل
وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل
وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـاحلهـــا القـــدس والســـاحـــل
فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــم بهاراحـــل
أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــد أن يضرب الشـــائل
يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل
وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملـــك مـــا أذل بـــالفتـــح أرضـــا
قط إلا أعـــزهـــا اغـــلاقـــه

والـــوهـــا في الـــرهـــا أزجـــى إليهـــا
عـــارضـــا شيـــب الـــدجـــى ابـــراقـــه

جـــــأرت جـــــأرة إليـــــه فحلّ
عطـــلا مـــن اعنـــاقهـــا اعنـــاقـــه

تلـــك بكـــر الفتـــوح فـــالشـــام منهـــا
شـــامـــه والعـــراق بعـــد عـــراقـــه

أيـــن كـــان الملـــوك عـــن وجههـــا الطلـــ
ـــق يـــرينـــا اضـــاءة اطـــلاقـــه

سنـــة سنهـــا أبـــوه بكلـــب الـــرو
م لما أظلـــــه ارهـــــاقـــــه

خـــافقـــا قلبـــه إلى أمـــل عـــا
جلـــه دون نيلـــه إخفـــاقـــه

قسمـــت رايـــة المواضي القسيميـــ
ـــات وابتـــز مـــن لهاه عـــراقـــه

وكـــذا أنـــت يـــا بنـــه مـــا عـــدا مـــن
خلقـــه فيـــك خصلـــه خـــلاقـــه

وكفـــى البحـــر أنـــه ابـــن سحـــاب
مـــاونـــى سحـــه ولا اصعـــاقـــه

لم يمـــت مـــن ســـددت ثلمتـــه يـــا
مـــن على الـــديـــن كظـــه اشفـــاقـــه

كلما طـــن ذكـــرهـــا منـــه في السمـــ
ـــع تكـــافى النـــافقـــاء نفـــاقـــه

وجهـــاد عـــن حـــوزة الـــديـــن لم يـــأ
ل لـــه ركضـــه ولا انفـــاقـــه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنور الدين روض كل محل
من الدنيا وجدّد كل بال
أقام على ثنية كل خوف
سهادا بات يكلأ كل كال
وصوّب عدله في كل أوب
فعوّض عاطلا منه بحال
ينكس رأيه رأي المحامي
ويقتل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت للاسلام عزا
يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم ملحفات
عصاما غير منتكث الحبال

## فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني، وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه اللّه قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غيرمستوجبين لشهادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لايسمع قول شاهد، ولايتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزير بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

## ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور دين الـ ـله أعيى على الملوك لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ
ـك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد
ليس إلا إلى المعالي سباقه
سل بصيرا كم أعتقت يوم بصرى
من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت
ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب واختيـ
ـها لها صكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو
طا ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال: وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظريـن إليها كصفرة الورس، وكذلـك الجبال وأشجار الغوطـة وكل ما ينظـر إليه مـن حيـوان وجماد ونبـات، ثم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفـات المفزعة ماارتاع لها الشيـب والشبان فكيـف الـولدان والنسـوان، وقلقـت لـذلك الخيـول في مرابطها، وبقـي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخـرة، ثم سكن بقدرة اللّـه تعالى، وأصبـح على الأرض والاشجار وسـائر النبات غبـار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الـدين أرتاح بالسيف وحصن بـارة وبصرفوث وكفر لاثـا، وكان الفـرنج قد طمعـوا وظنوا أنهم بعـد قتل الشهيـد يستردّون ما أخـذ منهم، فلما رأوا مـن نور الـدين هـذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

# فصل

## في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي هذه السنة تـواصلت الاخبـار من نـاحية القسطنطينية وبـلاد الفرنـج والروم وما والاهـا بظهور ملـوك الافرنـج من بـلادهـم منهـم:الألمان والفنـش وجماعة مـن كبـارهـم في العـدد الـذي لايحصر لقصد بـلاد الاسلام بعـد أن نادوا في سـائر بلادهـم ومعاقلهـم: النفير النفير إليها والإسراع نحوهـا، وخلوا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حماتها والحفظـة لها، ثم استصحبـوا من ذخائرهـم وأموالهم وعـددهم الشيء الكثير الـذي لايحصـى بحيـث يقال إن عـدّتهم ألـف ألـف مـن الرجـالة والفرسان، ويقـال أكثر من ذلك، وغلبـوا على أعمال قسطنطينية واحتـاج ملكهـا إلى الـدخـول في مـداراتهم ومسـالمتهـم والنـزول على أحكـامهـم، وحين شـاع خبرهـم وأشتهـر أمـرهـم شرعـت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

## ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

## فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكـانوا قد أحـرقوا الربـوة والقبة الممدوديـة في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعـالى على ما أولاهم من إجـابة دعائهم الـذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الـرحمة اجتماع معين الدين مع نور الديـن عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بـلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفـرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومـن بساحل الشام من الفـرنج فاجتمعـوا وقصدوا مدينـة دمشق ونـازلوها ، ولايشـك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هـو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهـم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابـق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس لـه مـن الأمر شيء، وإنما كـان الأمـر إلى مملـوك جـدّه طغتكين، وهو معين الديـن أنر، فهو كان الحاكم والمدبـر للبلد والعسكر، وكـان عـاقلا دينـا خيراً أحسـن السيرة، فجمـع العسكر وحفـظ البلـد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهـم، وكان فيمن خـرج الشيخ الفقيه حجـة الدين أبـو الحجاج يوسف بن دونـاس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشـق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عـابدا خرج راجـلاً، فرأى معين الـدين فقصده وسلـم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحـن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعـت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قـول اللّه تعالى:( إن اللّه اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة)(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيف الدين عساكره وسار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوّ عنها، وأعود إلى بلادي ،فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج، فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا والاسلمت البلد إليه وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه، وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء في دمشق لايبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

# فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطـــي نهر داريـــا
أمـــور مـــا يـــواتينـــا

وأقـــوام رأوا سفـــك الـــ
ــدماء في جلـــق دينـــا

أتـــانـــا مـــائتـــا ألـــف
عـــديـــداً أو يـــزيـــدونـــا

فبعضهـــم مـــن أنـــدلـــس
وبعـــض مـــن فلسطينـــا

ومـــن عكـــا ومـــن صـــور
ومـــن صيـــدا وتبنينـــا

إذا أبصرتهم أبصر
ت أقـــوامـــا مجانينـــا

و جـــازوا المرج والتعـــديـــ
ـــل أيضـــا والميـــادينـــا

تخالهم وقـــد ركبـــوا
فطـــائرهـــا جرادينا (٥٥)

وبين خيـــامهـــم ضمـــوا الـــ
ـــخنازير والقـــرابينـــا

وراي‍ـــــــات وصلب‍ـــــــان‍ـــــــا
على مسج‍ـــــدخ‍ـــــاتـــــون‍ـــــا

وقلن‍ـــــــا إذ رأين‍ـــــــاه‍ـــــم
لع‍ـــــــل اللّ‍ـــــــه يكفين‍ـــــــا

سما لهم معين ق‍ـــــــــــــــــد
أع‍ـــــــان الخل‍ـــــــق وال‍ـــــــدين‍ـــــــا

وفتي‍ـــــــــــــــــــــــان تخالهم
ل‍ـــــــدى الهيج‍ـــــــاء شي‍ـــــــاطين‍ـــــــا

ف‍ـــــــول‍ـــــــوا يطلب‍ـــــــون المر
ج م‍ـــــــن شرق‍ـــــــي جسرين‍ـــــــا

ولك‍ـــــــن غ‍ـــــــادروا الي‍ـــــــأ
س تحت التراب م‍ـــــــدف‍ـــــــون‍ـــــــا

وشيخ‍ـــــــا فن‍ـــــــدلاوي‍ـــــــا
فقيه‍ـــــــا يعض‍ـــــــد ال‍ـــــــدين‍ـــــــا

وفتي‍ـــــــان‍ـــــــا تف‍ـــــــان‍ـــــــوا م‍ـــــــن
دمش‍ـــــــق نح‍ـــــــو سبعين‍ـــــــا

ومنه‍ـــــــم م‍ـــــــائت‍ـــــــا عل‍ـــــــج
وخي‍ـــــــل نح‍ـــــــو تسعين‍ـــــــا

وب‍ـــــــاقيه‍ـــــــم إلى الآ
ن م‍ـــــــن القت‍ـــــــل يف‍ـــــــرّون‍ـــــــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

ع‍ـــــرّج على نج‍ـــــد لعل‍ـــــك منج‍ـــــدي
بنسيمه‍ـــــا وب‍ـــــذك‍ـــــر سع‍ـــــدى مسع‍ـــــدي

يقول فيها:

م‍ـــــن ق‍ـــــات‍ـــــل الافـــــرنـــــج دين‍ـــــا غيره
والخي‍ـــــل مث‍ـــــل السي‍ـــــل عن‍ـــــد المشه‍ـــــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّـ
ـنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتى إذا بدت الآراء ضاحكة
وأقبلت أوجه الاقبال تبتسم
اتبعت جنّ سراياهم مضمرة
فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجموا
والنصر دان وخيل الله مقبلة
ترجو الشهادة في الهيجاء تغتنم
صاب الغمام عليهم والسهام معا
فما دروا أيها الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الاعمار فانتهبوا
قتلا و يغتنموا الاموال فاغتنموا
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم
مجنوبة وعلى أرماحنا القمم
وأدبر الملك الطاغي يزعزعه
حرّ الاسنة وهو البارد الشيم
وافوا دمشق فظنوا انها جدة
ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم
إن لم يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربا ن وانجلفوا
وخلفوا أكبر الصبيان وانهزموا
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد
أغرى الفنا بتمادي خطفهم نهم
لا يملك الجسم دمعا عن مقاتله
كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت
عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

# فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكـره وأثقاله وكراعـه ما آوجبته الاقدار النـازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكـره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلـب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طـي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نـور الدين من تقديم ابن الدايـة عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومـرّ به نو الدين فقـال له: مـا هذا الـوقوف والغفلـة في مثل هـذا الوقـت والمسلمون قـد انكسروا ؟فقال: يـاخونـد ايش ننفع نحـن إنما ينفع مجد الـدين أبـو بكر فهو صـاحب الأمر، فاستـدرك نور الدين ذلـك وطيب قلب أسد الـدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتـل في هذه الكسرة شـاهنشاه بـن أيوب أخـو الملك النـاصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهـو والد عز الـدين فرخشـاه وتقي الـدين عمر والسـت عذرا المنسوب إليهـا العذراويـة داخل باب النصر بـدمشق، وقبره الآن بـالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمـت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنـــــه مـــــن مـــــاء يغـــــرا إن فـــــرّ إلا
شـــــابـــــات ذاد عنهـــــا انـــــذلاقـــــه
كـــــان فيهـــــا الليـــــث العـــــريـــــن حمى الأ
شبـــــال منـــــه غضبـــــان كـــــالنـــــار مـــــاقـــــه

وشبيـــــــــه النبـــــــــي يـــــــــوم حنين
إذ تـــــلافـــــا أدواءهـــــم دريـــــاقـــــه

- ٧٦٥١ -

وهـــــي الحرب فحلهـــــا بحســـــن الكـــــ
ـــــرة إن عـــض بـــأسهـــا الانيـــاقـــه

# فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل اللّه نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما
فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكــــرّ والفــــرّ سجـــال الــوغـــى
فطـــــارد طــــــورا ومطــــــرود

وإنما الافـــــرنـــــج مـــــن بغيهــــا
عـــــادوا وقـــــد عـــــاد لها هـــــود

قـــــد حصحــــص الحق فما جـــاحـــد
في قلبــــه بـــــأســـــك مجحـــــود

فكـــــل مصر بـــــك مستفتـــــح
وكـــــل ثغـــــر بـــــك مســـــدود

وقال أيضـا قصيدة في نـور الدين: وأنشـده إياها بظـاهر حلـب، وقد كسر الفـرنج على يغـرا،وهـزمهم إلى حصـن حـارم، وقد كـانـت الفرنـج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفـــــــي بضمانها البيـــــــض الحداد
وتقضي دينهـــــا السمـــــر الصعـــــاد

وتـــدرك ثـــارهـــا مـــن كـــل بـــاغ
فـــوارس مـــن عـــزائمهـــا الجلاد

ويغشـــــى حـــومـــــة الهيجـــا همام
يشــــدّ بضبعـــــه السبـــــع الشـــداد

أظنــــوا أن نـــــار الحرب تخبــــو
ونـــــور الـــديـــن في يـــده الـــزنـــاد

وجنـــد كـــــالصقـــــور على صقـــــور
إذا انقضــــوا على الابطـــــال صـــــادوا

إذا اخفــــوا مكيــــدتهم أخــــافـــــوا
وإن أبـــــدوا عـــــداوتهم أبـــــادوا

ونصرة دولـــــة حـــــاميـــــت عنهـــــا
وهـــــل يخشـــــى وأنـــــت لها عماد

وإن تتلى القـــــوافي مـــــا تلتـــــه
بـــإنـــب مـــايـــوّنبهـــا اسنـــاد

جرت بالنصر أقلام العوالي
وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الأعلاج خصبا
فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا
ولا طعن هناك ولا طراد
ولا برنس فوق الرمح رأس
توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه
وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس
وغايرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا
فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر بيني الوغى مثوى حبيب (٥٦)
فما عن باب مسلمه ذياد
ولا في باب فارس غير ثكلى
بفارسها يضيء بها الحداد
لأنطاكية يحمي ذراها
وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت
ملبية لدعوتك العباد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء اللّه تعالى.

# فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بـأن صاحبهـا نور الـدين ابـن أتابـك أمر بـابطال حـي على خير العمل في أواخـر تأذين الغـداة، والتظاهر بسـب الصحابة، وانكـر ذلك إنكارا شديـداً، وساعده على ذلك جماعـة من أهل السنة بحلـب، وعظم هذا الأمـر على الاسماعيلية وأهل التشيـع وضاقت لـه صدورهم وهـاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف مـن السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فـــداك مـــن صـــام ومـــن أفطـــرا
ومـــن سعـــى سعيـــك أو قصرا

ومـــا الـــورى أهـــلا فتفـــدى بهم
وهـــل يـــوازي عـــرض جـــوهـــرا

عـــدل تســـاوى تحت أكنـــافـــه
مطـــافـــل العين واســـد الشرى

يـــا نـــور ديـــن اللّـــه كـــم حـــادث
دجـــى وأسفـــرت لـــه فـــانسرى

وكـــم حمى للشرك لا يهتـــدي الـــ
ـــوهم لـــه غـــادرتـــه مجزرا

يـــا ملـــك العصر الـــذي صـــدره
افســـح مـــن أقطـــارهـــا مصـــدرا

وابـــن الـــذي طـــاول أفـــلاكهـــا
فلـــم يجد مـــن فـــوقـــه مظهـــرا

منـــاقـــب تكسر كسرى كما
تقصر عـــن إدراكهـــا قيصرا

ماعام في أوصافها شاعر
إلاّ رأى أوصافها أشعرا
للّه أصل أنت فرع له
ما أطيب المجنى وما أطهرا
ما حلب البيضاء مذ صنتها
إلاّ حرام مثل أمّ القرى
شيدت في معمور أرجائها
لكل باغي عمره مشعرا
فأصبح الشادي إذا ثوّب الـ
ـداعي له هلل أو كبرا
لا عدم الاسلام من كفه
كهف لمن أرهق أو أحصرا
كأنها ساحته جنة
أجرت بها راحته كوثرا
تصرّم الشهر الذي كنت في
أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل في نهار غزا
إذ كنت فيه الأصبر الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع
ما هز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من
خلاك في ليلهما نيرا
حتى ترى عيسى من القدس قد
نجا إلى سيفك مستنصرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة لها من المذاهب ما أوجب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

# ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجـدّدت المهادنـة في المحرّم مـدّة سنتين، وأنفذ نـور الديـن إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكيـة قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكـره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة مـاسة إلى معاضدتـه، فندب معين الديـن مجاهد الدين بُـزان بن مامين في فـريق وافـر من العسكـر الدمشقـي للمصير إلى جهته، وبـذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر مـن السنة وردت البشائر من جهة نـور الدين بما أولاه اللّه تعالى، وله الحمد على حشد الفـرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهـم، وتعجيل دمـارهم، وذلـك أن نور الـدين اجتمـع له مـن العساكر ستـة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتبـاع والسواد، فنهض بهم إلى الفـرنج في الموضـع المعروف بـإنّـب وهم في نحـو أربعمائة فارس وألـف راجل، فقتلـوهم وغنمـوهم ووجـد اللعين البرنس مقـدّمهم صريعـاً بين حماتـه وأبطالـه، فعـرف وقطع رأسـه، وحمل إلى نور الـديـن ، وكان هـذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بـالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقـة، مع اشتهار الهيبة وكثـرة السطوة والتناهـي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على بـاب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثـرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسـلات بينه وبينهم في طلـب التسليم إليه وإيمانهم وصيـانة أموالهم، فوقع الاحتجـاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الـدخول فيه إلاّ بعد انقطـاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على مـن يقصدهم، وحملـوا ما أمكنهم مـن التحف والمال، ثم استمهلـوا فأمهلوا، ثـم رتب نور الـدين

بعـض العسكر لـلاقامـة عليهـا، والمنع لمن يصـل إليها، ونهض في بقيـة العسكر إلى نـاحية أفاميـة، وقد كان رتب الأمير صـلاح الدين في فـريق وافـر من العسكـر لمنـازلتها ومضـايقتهـا، فالتمسـوا الأمـان فأومنـوا على أنفسهم وسلمـوا البلد في ثـامن عشر ربيع الأوّل، وانكفـأ نور الـدين في عسكره إلى نـاحية أنطـاكية وقد إنتهـى الخبر بنهوض الفرنـج من نـاحية الساحل إلى صوب أنطـاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهـادنة من في أنطاكية ومـوادعتهم، وتقرير أن يكـون ماقرب من الأعمال الحلبيـة له، وما قرب مـن أنطاكية لهم، ورحل عنهـم إلى جهة غيرهم بحيث كـان قد ملـك في هذه النـوبة ممـا حول انطـاكية مـن الحصون والقـلاع والمقالـع، وغيرهـا مـن المغانـم الجمـة، وفصـل عنـه الامير مجاهـد الديـن بـزان في العسكـر الدمشقـي وقـد كـان له في هـذه الـوقعـة ولمن في جملته البـلاء المشهـور والذكـر المشكور، لما هـو مـوصوف بـه مـن الشهامـة والبسالـة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طـي: حمل أسد الدين على حامل صليـب الفرنج فقتله وقتل البرنـس صاحب أنطـاكية وجماعة مـن وجوه عسكره، ولم يقتـل من المسلمين من يقـوم به، وعـاد المسلمون بـالغنائم والأسـارى، وكان لأسـد الديـن في هذه الحرب اليد البيضـاء، ومدحه بها بعـض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كـان آل فـرنـج أدركـوا فلجـا
في يـوم يغـراونـا الـوامنيـة الظفـر

ففـي الخطيـم خطمـت الكفـر منصلتـا
أبـا المظفـر بـالصمصـامـة الـذكـر

نـالـوا بيغـرانهابـا وانتبهـت لنـا
على الخطيـم نفـوس المعشر الأشر

واستقـودوا الخيـل عـريـا واستقـدت لنـا
قـوامـص الكفـر في ذل وفي صغـر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صـــافحــت يـــابـــن عـمـاد الـــديـــن ذروتهـا
بـــراحـــة للمســــاعـــي دونها تعـــب
مـــازال جــــدّك يبنـــي كـــل شـــاهقـــة
حتـــى إبتنـــى قبـــة أوتـــادهـــا الشهـــب
للّـــه عـــزمــك مـــا أمضـــى وهمك مـــا
أفضـــى اتســـاعـــا بما ضـــاقـت بـــه الحقـــب
يـــاســـاهــد الطـرف والأجفـــان هـــاجعـــة
وثـــابـــت القلـــب والأحشـــاء تضطـــرب
أغـــرت سيـــوفـــك بـــالافـــرنـــج راجفـــة
فـــؤاد روميـــــة الكبرى لها يجب
ضربـــت كبشهـــم منهـــا بقـــاصمـــة
أودى بها الصلـــب وانحطـــت بها الصلـــب
قـــل للطغـــاة وإن صمـــت مســـامعـــا
قـــولا لصـــم القنـــا في ذكـــره أرب
مـــا يـــوم إنـــب والأيـــام دائلـــة
مـــن يـــوم يغـــرا ببعيـــد لا ولا كثـــب
أغـــرّكـــم خـــدعـــة الآمـــال ظنكـــم
كـــم أسلـــم الجهـــل ظنـــا غـــرّه الكـــذب
غضبـــت للـــديـــن حتـــى لم يفتـــك رضـــى
وكـــان ديـــن الهدى مـــرضـــاتـــه الغضـــب
طهـــرت أرض الأعـــادي مـــن دمـــائهـــم
طهـــارة كـــل سيـــف عنـــدهـــا جنـــب
حتـــى استطـــار شرار الـــزنـــد قـــادحـــة
فـــالحرب تضرم والآجـــال تحتطـــب
والخيـــل مـــن تحت قتـــلاهـــا تقـــر لها
قـــوائم خـــانهنّ الـــركـــض والخبـــب
والنقـــع فـــوق صقـــال البيـــض منعقـــد
كما استقـــل دخـــان تحتـــه لهب

السيـــف هـــام على هـــام بمعـــركـــة
لا البيـــض ذو ذمّـــة فيهـــا ولا اليلـــب
والنبـــل كـــالـــوبـــل هطـــال وليس لـــه
ســـوى القسي وأيـــد فـــوقهـــا سحـــب
وللظبـــى ظفـــر حلـــو مـــذاقتـــه
كـــأنما الضرب فيما بينهـــم ضرب
ولـــلأسنـــة عما في صـــدورهـــم
مصـــادر أقلـــوب تلـــك أم قلـــب
خـــانـــوا فخـــانـــت رمـــاح الطعـــن أيـــديهم
فـــاستسلمـــوا وهـــي لا نبـــع ولا غـــرب
كـــذاك مـــن لم يـــوق اللّـــه مهجتـــه
لاقـــى العـــدى والقنـــا في كفـــه قصـــب
كـــانـــت سيـــوفهـــم أوحـــى حتـــوفهـــم
يـــارب حـــائنـــه منجـــاتها العطـــب
حتـــى الطـــوارق كـــانـــت مـــن طـــوارقهـــم
ثـــارت عليهـــم بهـــا مـــن تحتهـــا النـــوب
أجســـادهـــم في ثيـــاب مـــن دمـــائهـــم
مسلـــوبـــة وكـــأنّ القـــوم مـــا سلبـــوا
أبنـــاء ملحمـــة لـــو أنها ذكـــرت
فيما مضـــى نسيـــت أيـــامهـــا العـــرب
مـــن كـــان يغـــزو بـــلاد الشرك مكتسبـــا
مـــن الملـــوك فنـــور الـــديـــن محتسب
ذو غـــرّة مـــا سمـــت والليـــل معتكـــر
الا تمزق عـــن شمـــس الضحـــى الحجـــب
أفعـــالـــه كـــاسمـــه في كـــل حـــادثـــة
ووجهـــه نـــائب عـــن وصفـــه اللقـــب
في كـــل يـــوم لفكـــري مـــن وقـــائعـــه
شغـــل فكـــل مـــديحي فيـــه مقتضـــب

مــن بــاتـــت الاســـد أسرى في ســلاسلــه
هــل يــأسر الغلــب إلاّ مــن لــه الغلــب
فملكـــوا سلـــب الابــرنـــس قـــاتلـــه
وهـــل لـــه غير أنطـــاكيـــة سلـــب
مـــن للشقـــي بها لاقـــت فـــوارســـه
وإن يســـائرهـــا مـــن تحتـــه قتـــب
عجبـــت للصعـــدة السمـــراء مثمـــرة
بـــرأســـه إن أثمار القنـــا عجـــب
سما عليهـــا سمـــوّ الماء أرهقـــه
أنبـــوبـــة في صعـــود أصلهـــا صبـــب
مـــا فـــارقـــت عـــذبـــات التـــاج مفـــرقـــه
إلاّ وهـــي منـــه لاتـــاج ولا عـــذب
إذا القنـــاة ابتغـــت في رأســـه نفقـــا
بـــدا الثعلبهـــا مـــن نحـــره سرب
كنـــا نعـــدّ حمى أطـــرافنـــا ظفـــرا
فملكتـــك الظبـــى مـــا ليـــس نحتســـب
عمـــت فتـــوحـــك بـــالعـــدوى معـــاقلهـــا
كـــان تسليـــم هـــذا عنـــد ذا جـــرب
لم يبـــق منهـــم ســـوى بيـــض بـــلا رمـــق
كما التـــوى بعـــد رأس الحيـــة الـــذنـــب
فـــانهض إلى المسجـــد الأقصـــى بـــذي لجب
يـــوليـــك أقصـــى المنى فـــالقـــدس مـــرتقـــب
وائذن لموجـــك في تطهير ســـاحلـــه
فـــانما أنـــت بحـــر لجه لجب
يـــا مـــن أعـــاد ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
مـــن الظبـــى عـــن ثغـــور زانها الشنـــب
مـــازلـــت تلحـــق عـــاصيهـــا بطـــائعهـــا
حتـــى أقمـــت وأنطـــاكيـــة حلـــب

حللت من عقلها أيدى معاقلها
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب

وأيقنت أنها تتلو مراكزها
وكيف يثبت بيت ماله طنب

أجريت من ثغر الاعناق أنفسها
جري الجفون امتراها بارح حصب

وما ركزت القنا إلاّ ومنك على
جسر الحديد هزبر غيله اشب

فاسعد بما نلته من كل صالحة
يأوي إلى جنة المأوى لها حسب

إن لا تكن أحد الابدال في فلك الـ
ـتقوى فلا نتمارى أنك القطب

فلو تناسب أملاك السماء بها
لكان بينكما من عفة نسب

هذا وهل كان في الاسلام مكرمة
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا للّه درّك أي درّ
صريح جاء بالكرم الصريح

وعسكرك الذي استولى مشيحا
على ما بين فاميه وشيح

ووقعتك التي بنت العوالي
صوادر عن قتيل أو جريح

بإنب يوم أبرزت المذاكي
من النقع الغزالة في مسوح

غداة كأنها العاصي احمرارا
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف
أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس إذلا
يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا
وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت إلى ذرا حلب حميدا
سمو البدر من بعد الجنوح
فإن جليت بغرتك الليالي
فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فواقا
بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وإن أرحت الخيل وقتا
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما غُلَّت دما عبراته
ردّت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته
أرسى قواعده ومدّ عماده
صعدا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
اصلاته وصلاته وصلاته
لما تواكل خربه وتخاذلت
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعــت لنــور الــديــن نــار عــزيمــة
رجعــت لهاعــن طبعهــا ظلماتــه
ملــك مجالــس لهوه شــداتــه
ومشــوقــه بين الصفــوف شــذاتــه
تغــري بحشحشــة اليراع بنــانــه
إن لــذ حشحشــة الكــؤوس لــداتــه
ويــروقــه ثغــر العــدى قــان دمــا
لا الثغــر يعبــق في لماه لثــاتــه
فصبــوحــه خــمر الطلى وغبــوقــه
نطــف النفــوس تــدّرهــا نشــواتــه
فتــح تعممــت السماء بفخــره
وهفــت على أغصــانها عــذبــاتــه
سبغــت على الاســلام بيــض حجــولــه
واختــال في أوضــاحهــا جبهــاتــه
وانهل فــوق الابطحين غمامــه
وسرت إلى سكينهــا نفحــاتــه
للّــه بلجــة ليلــة محصــت بــه
واليــوم ذبــح وشيــه ســاعــاتــه
حــط القــوامــص فيــه بعــد قماصهــا
ضرب يصلصــل في الطلى صعقــاتــه
نبــذوا الســلاح لضيغــم عــاداتــه
فــرس الفــوارس والقنــا غــايــاتــه
لمجــرب عمــريــه غضبــاتــه
للّــه معتصميــة غــزواتــه
تحيــا الضيــق صفــاده اسراؤه
وتفيــض مــاء شــؤونها نغماتــه
بين الجبــال خــواضعــا أعنــاقهــا
كــالــذودنــابــت عــن بــراه حــداتــه

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكرر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجسام قبل رماحه
شجراً أفروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه مخباته
وسقى صدا ذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا اسمطا ببعض فتوحه
سخرت بها افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه باآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبأ خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف فجآته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

مـــا انقـــادقبلـــك أنفـــه لخزامـــه
كـــلا ولا همســـت لها هـــدراتـــه
طيـــان خلـــف السرح طـــال زئيره
نطقـــت سطـــاك لـــه فطـــال صماتـــه
لما بـــدا مســـود رأيـــك فـــوقـــه
مبيـــض نصرك نكســـت رايـــاتـــه
ورأى سيـــوفـــك كـــالصـــوالـــج طـــاوحـــت
مثـــل الكـــريـــن فقلصـــت كـــراتـــه
ولى وقـــد شربـــت ظبـــاك كماتـــه
تحت العجـــاج وأسلمتـــه حماتـــه
تـــرك الكنـــائس والكنـــاس لنـــاهـــب
بـــالبيـــض نهب مـــاحـــواه عفـــاتـــه
لغـــلاب أروع لا يميـــت عـــداتـــه
داء المطـــال ولا تعيـــش عـــداتـــه
للـــوحـــش ملقـــى بـــالعـــرايقتـــاتـــه
مـــاكـــان قبـــل بصيـــده يقتـــاتـــه
اليـــوم ملكـــك القـــراع قـــلاعـــه
متسنما مـــا استشرفـــت شرفـــاتـــه
وغـــدا تحل لـــك الحلائل اسهـــم
متـــوزعـــات بينهـــن بنـــاتـــه
اوطـــأت أطـــراف السنـــابـــك هـــامـــه
فتقـــاذفـــت بعنيفهـــا قـــذفـــاتـــه
لازال هـــذا الملـــك يشمـــخ شـــأنـــه
أبـــدا ويلفـــت في الحضيـــض وشـــاتـــه
مـــا أخطـــأتـــك يـــد الـــزمـــان فـــدونـــه
مـــن شـــاء فلتسرع إليـــه هنـــاتـــه
أنـــت الـــذي تحلى الحيـــاة حيـــاتـــه
وتهب أرواح القصيـــدهبـــاتـــه

# فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دثارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها

من عام سام الخافقين وحامها
مننا وزادهوى فخص نزارها

مضرية طبعت مضاربه وإن
عدّته ذروة فارس اسوارها

آل الرعية وهي تجهل آلها
وتعاف نطفتها وتكره دارها

فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها
وأساغ جرعتها واثبت زارها

ملك أبوه سما لها فسما بها
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيل له فأوضع خلفه
وشدا له يمن العلى فنارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد
من بعد ما شمل البلى اصحارها
إن جانأت عدل السنان قوامها
أو نانأت كان الحسام جبارها
عقلت مع العصم العواصم مذ غدت
هذي العزائم أسرها وإسارها
وتكلفت لك ضمر انضيتها
في صونها أن تستردّ ضمارها
كلأت هواملها وردّ مطارها
ما أريشته وثقفت آطارها
كم حاولت من كفتيها غرّة
غلب الأسود فقلمت أظفارها
أنى وحامي سرحها من لو سمت
للفلك بسطته أحال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة
للدين يحمل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر إن غدا الـ
ـخطباء تنشر فوقها تقصارها
همم تحجلت الملوك وراءها
بدم العثار وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوثر الآساد عن
نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفة الذرى
بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغزت أفامية فما فهمته
كوبار أجناها الاران بوارها

أرهفـــت رائك فــــوق رائك تحتهـــا
فحططـــت مـــن شغفـــاتها أعفـــارهـــا
أدركـــت ثـــارك في البغـــاة وكنـــت يـــا
مختـــار أمّـــة أحمد مختـــارهـــا
عـــاريـــة الـــزمـــن المغير سماها
منـــك المغيرة فـــاستردّ معـــارهـــا
زأر الهزبـــر فقيـــدت عـــانـــاتها
عصر الضـــلال وأسلمـــت أعيـــارهـــا
ضـــاءت نجـــومـــك فـــوقهـــا ولـــربما
بـــاتـــت تنـــافثهـــا النجـــوم سرارهـــا
أمســت مـــع الشعـــرى العبـــور وأصبحـــت
شعـــراء تستقلي الفحـــول شـــوارهـــا
ولكـــم فـــرعـــت بمقـــربـــاتـــك مثلهـــا
تلعـــا وقلـــدت الكماة عـــذارهـــا
حتـــى إذا اشتملتـــك أشرق ســـورهـــا
عـــزا وحـــلاهـــا سنـــاك ســـوارهـــا
خـــرّ الصليـــب وقـــد علـــت نغماتها
واستـــوبلـــت صلـــواتـــه تكـــرارهـــا
لما وعـــاهـــا سمـــع انطـــاكيـــة
سرت الـــوقـــار وكشفـــت أستـــارهـــا
فـــاليـــوم أضحـــت تستـــذمّ مجيرهـــا
مـــن جـــوره وغـــدت تـــذمّ جـــوارهـــا
علمـــت بـــأن ستـــذوق جـــرعـــة أختهـــا
إن زرّ أطـــواق القبـــاء وزارهـــا
مـــاض إذا قـــرع الـــركـــاب لبلـــدة
ألقـــت لـــه قبـــل القـــراع ازارهـــا
و إذا مجانقـــه ركعـــن لصعبـــة الـــ
ـــملقاة أسجـــد كـــالجديـــر جـــدارهـــا

مــلأ البــلاد مـــواهبـــا ومهـــابـــة
حتـــى استرقـــت آيـــة أحـــرارهـــا

يـــذكـــي العيـــون إذا أقـــام لعينهـــا
أبـــدا ويفضي بـــالظبـــى أبكـــارهـــا

أو مـــا إلى رمـــم النـــدى فـــأعـــاشهـــا
وهما الســـابقـــة المنـــى فـــازارهـــا

نبـــويّ تشبيـــه الفتـــوح كـــأنها
أنصـــاره رجعـــت لـــه أنصـــارهـــا

أحيـــا الصرح ســـلامهـــا سلما نها
وأمـــات تحت عمارهـــا عمارهـــا

إن ســـار ســـار وقـــد تقـــدّم جيشـــه
رجـــف يقصـــع في اللهـــي ذعـــارهـــا

أو حـــلّ حـــلّ حبـــا القـــروم بهيبـــة
سلـــب البـــدور وبـــدارهـــا أبـــدارهـــا

وإذا الملـــوك تنـــافســـوا درج العلى
أربـــى بنفـــس أفـــرعتـــه خيـــارهـــا

ونهى إذا هيضـــت تـــدلّ لجبرهـــا
وسطـــى تـــذل إذا عنـــت جبـــارهـــا

تهدى لمحمـــود السجـــايـــا كـــاسمـــه
لـــولـــز فـــاعلـــة بها لأبـــارهـــا

الفـــاعـل الفعـــلات ينظـــم في الـــدجـــى
بين النجـــوم حســـودهـــا اسهارهـــا

ســـاع سعـــى والســـابقـــات وراءه
عنقـــا فعصفـــر منتهاه عثـــارهـــا

كـــا لمضرجـــي إذا يصرصر رائبـــا
خـــرس البغـــاث وهـــاجـــرت أوكـــارهـــا

عـــرفـــت لنـــور الـــديـــن نـــور وقـــائع
يغشـــى إذا اكتحلـــت بـــه أبصـــارهـــا

مشهورة سطعـــت وقـــد حـــاولتهـــا الــــ
ــــأقدار عجــــزا أن تشـــق غبــــارهـــا
للّـــه وجهـــك والــــوجــــوه كــــأنها
حطـــت بها أوقــــار هبــــت قـــارهـــا
والبيـــض تخنـــس في الصــــدور صــدورهـــا
هبرا وتكتحـــل الشفـــور شفــــارهـــا
والخيـــل تـــدلـــج تحت أرشيـــة القنــــا
جـــذب المواتـــح غـــاورت أبــــارهـــا
فبقيـــت تستجلي الفتـــوح عـــرائســــا
متمليـــــاصــــدر العلى وصــــدارهـــا
في دولـــــة للنصر فــــوق لـــــوائهـــا
زبــــر تنمــــق في الطلى أسطـــــارهـــا
فـــالـــديـــن مـــرمـــاة رفعـــت بها الصـــوى
وحـــديقـــة ضمنـــت يـــداك ابـــارهـــا

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنـــس الثعـــالـــب حين زمجر مصحـــر
مــــــلأ البــــــلاد هماهما وزئيرا
تــركـــوا مشـــاجـــرة الـــرمـــاح لحاذق
جعلـــت مخافتـــه القصـــور قبـــورا
لـــريبـــب حـــرب لم تـــزل فعــــلاتـــه
كـــالـــراء يلـــزم لفظهـــا التكـــريـــرا
أســـد إذا مـــا عــــاد مـــن ظفـــر بمفــــ
ــــترس أحــــدّ لمثلــــه اظفـــورا
يتنـــاذر الاعـــــداء منـــــه سطـــوة
مـــلأ الـــــزمـــــان تغيظــــا وزفيرا
عــرفــوا النـــور الـــديـــن وقـــع وقـــائع
وفى بها الاســــلام أمـــــس نـــذورا

أبــــدا يظـــافــرك القضـــاء على الـــذي
تبغـــي فترجـــع ظـــافـــرا منصـــورا
قـــوّضـــت فـــانتقـــع الظهـــائر ظلمـــة
وقفلـــت فـــاشتعـــل الـــديـــاجـــر نـــورا
وعلى العـــواصـــم مـــن دفـــاعـــك عـــاصـــم
ينشـــي الـــرشيـــد وينشر المنصـــورا

## فصل

## في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه وأمعن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كـــــل يـــــوم فتـــــح مبين ونصر
واعتـــــلاء على الأعـــــادي وقهـــــر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كل
غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا
ك هما الباقيان أجر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمها النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتـــــراك والعـــــربـــــا
وكـــــن في حـــــزب مـــــن غلبـــــا

بجلـــــق أصبحـــــت فتـــــن
تجر الـــــويـــــل والحربـــــا

لئـــــن تمت فـــــوا أسفـــــا
ولم تحزن فـــــوا عجبـــــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زدعلـــــوافي المجـــــديـــــابـــــن علي
هكـــــذا مـــــن أرادأن يتعـــــالى

وغـــــدت جلـــــق تنـــــاديـــــك عجبـــــا
هكـــــذا هكـــــذا والا فـــــلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنما ذاك كـــــان قطعــــا فـــــزالا
قـــد حـــوى الـــديـــن يـــا مـــؤيـــده منـــ
ـــك هـــزبـــراً وديمـــة وهـــلالا
جئتهـــا في الظـــلام خيـــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامـــوالا
قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــى اللّـــه المؤمنين القتـــالا

قـال أبـو يعلى التميمـي: وفيهـا ورد الخبر مـن نـاحيـة مصر بـوفـاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خـامس جمادى الآخرة ، وولي الأمـر بعد ولـده الأصغـر أبو منصـور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولي الـوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

# فصل

# في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابـن الاثير:كان أتـابك الشهيـد، يعني زنكـي، ملك دارا وبقيـت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنـة أربع وأربعين فحـاصرها وملكهـا واستولى على كثير مـن بلد مـاردين بسببهـا، ثم حصر ماردين عازما على أن يـدخل ديـار بكر، ويستعيد مـا أخذ مـن البلاد بعـد قتل والـده، فتفرق العسكـر في بلدهـا ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنـا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كـانت أعيـاداً قد حصرنـا غير مرة فلـم يتعدّ هـو وعسكره حـاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رب دهــــــــر بكيــــــــت منــــــــه فلما
صرت في غيره بكيــــــــت عليــــــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصـوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلام يــــــراك المجــــــد في زي شـــــاعــــر

يقول في آخرها:

أتــابــك إن سميــت في المهـد غــازيــا
فســـابقــة معــدودة في البشــائر

وفيــت بها والــدين قــد مــال روقــه
وصــدّقتهــا والكفــر بــادي الشعــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الدين بـأخيه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــو الجدّ بـــز التمام البـــدورا

يقول فيها:

ســوى كــل مــا جنــت الحادثــا
ت مــا كنــت ظــلا علينــا قــريــرا

أســـأ ن وأحســـن كـــنّ الهلال
ومـــلأننــا منـــك بـــدرا منيرا

إذا ثبـــج البحـــر أخطـــأته
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا

وأصغـــر بفقـــدا اننـــا الـــذاهبــ
ـــين مــا عشــت نــا تيــك ملكــا كبيرا

ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــا ســلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا

قسيـــم عــــلاك ونعــــم القســـ
ـــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا

وكـــان نظيرك غــــار الـــزمـــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا

فــدتــك نفــوس بــك استــوطنــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا

وغيرك يمهـــد بســـط العـــزا
ء ويـــولي المسلمين سمعـــا وقـــورا

ومـــا نقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــرا وأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــــــــــــــورا

حيـــا تـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــــت مـــــن الجود ظهــــرا ظهيرا

بقيـــــت معــــزا مـــــن الهالكـــــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها
مـــا أطـــرق الجو حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـــد السيـــف فـــالصمصـــام يـــأتلـــق

دون الاســـى منـــك نـــور الـــديـــن في حلـــب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـــق الشفيـــق الغيـــب حين ثـــوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاســـى مـــن لبـــاس الصبر في جنـــن
حصينـــة تحتهـــا الاحشـــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنها نحـــــن في مضهار حلبتهـــــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

شـــأو إذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

مـــاغـــاب مـــن غـــاب عـــن آفـــاق مطلعـــه
الا ليفترّ عــــن أنــــوارك الافــــق
مــــادام شمســـك فينـــا غير آفلـــة
فـــالـــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

# فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد،بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الاخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وماذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل،وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

## فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقـدّم والد شمس الدين بن المقـدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسـار نور الديـن جريدة في سبعين فارسـا مُن أكابـر دولته منهـم أسد الـديـن شيركوه، ومجد الـديـن أبو بكـر بـن الدايـة وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستـة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهـم اللبابيد، فلم يعرفهـم الذين بالبـاب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصـول نفر من الأجناد كأنهم تـركمان، فلم يستتم القاصد كـلامه حتى وصل نـور الدين فحين رآه الشحنة قبـل يده وخرج عن الـدار فنزلها نور الديـن حتى لحق به أصحـابه، وسـار مجداً إلى سنجار فـوصلها وليـس معه إلاّ نفـر يسير، فنزل بظاهـر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شـدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بـالقلعة يعرفه وصـوله، وكان المقـدّم قد استدعي مـن الموصل لأن خبره مع نور الـدين بلغ من بها فأرسلـوا إليه، فوقف عـدّة أيام فلم يصل نـور الديـن، فسار إلى الموصل، وتـرك ابنه شمـس الديـن بسنجار، وقال له: أنا أتاخـر في الطريق فإن وصل نور الدين فـأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمـس الدين بوصوله أرسل قاصـدا إلى أبيه بـالخبر وأنهى الحال إلى نور الـدين فخـاف فوات الأمـر، ووصل القاصد الـذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتـل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نـور الدين، وكاتـب فخر الدين قـرا أرسلان بن داود صاحـب الحصن يستنجده، وبذل لـه قلعة الهيثم فسار إليـه بجنده، فلما سمع قطـب الدين الخبر جمع عسـاكره وسـار عن الموصل، نحـو سنجار ومعه الجمال والزين ونـزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الـدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصـده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فـأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبـر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتـابعت كتب الأمراء يذكرون كـراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفـت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد مـن أيدينا، فأما تهدّدكم إيـاي بالقتال فأنا مـا أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهدّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حمص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حمص كانت لأخيه ينال ، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال:أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأنّ عدوّك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هــــذا الــــذي ولـــدت لـــه الافكـــار
وتمخضـــــت فـــــأ لا بــــه الاشعـــــار
وجـــرت لـــه خيـــل النهـــى في حلبـــة
وردت وصفـــــــو ضميرهـــــا المضمار
واتـــت بـــه نـــذر القـــوافي بـــرهـــة
إن القـــــوافي وحيهــــا انـــــذار
حكمـــت لسيفـــك بـــا لمما لـــك عنـــوة
حكـــما لعمـــري مـــا عليـــه غبـــار
يـــا أيها الملـــك المطيـــل نجـــاده
بـــرّيـــديـــن بهديـــه الابـــرار
يـــا بـــن السيـــوف وهـــل فخـــرت بنسبـــة
إلاّ سما بـــــك للجــــدود فخــــار
فـــارقـــت دار الملـــك غير مفـــارق
لـــك مـــن عـــلاك بكـــل أرض دار
في عسكـــر تخفـــي كـــواكـــب ليلـــه
نقعـــا فيطلعهـــا القنـــا الخطـــار
جـــرّار أذيـــال العجـــاج وراءه
وأمـــامـــه بـــل جحفـــل جـــرّار
تـــدنـــي لـــك الغـــايـــات أكبر همة
نـــوريـــة همم الملـــوك كبـــار
حتـــى مـــلأت الخافقين مهـــابـــة
دانـــت لعظـــم نظـــامهـــا الاقطـــار
وملكـــت سنجـــارا ومـــا مـــن بلـــدة
إلاّ تمنـــــت أنها سنجـــــار
وبسطـــت بـــالأمـــوال كفـــا طـــالما
طـــالـــت بها الآمـــال وهـــي قصـــار
وجـــرت بـــأمـــداد الجيـــاد شعـــابها
جـــري السيـــول ومـــا ســـواك قـــرار

وثنـــى الفـــرات إلى يـــديـــك عنـــانـــه
والبحـــر مـــا اتصلـــت بـــه الانهار

وملكـــت رحبـــة مـــالـــك فتبرجـــت
منهـــا العينـــك كـــاعـــب معطـــار

جـــاءتـــك في حلـــل الـــربيـــع وحليهـــا
قبـــل الـــربيـــع شقـــائق وبهار

نشـــرت عليـــك هـــوى القـــلوب محبـــة
وتـــودّ لـــو أنّ النجـــوم نثـــار

فـــأقمـــت كـــالشمـــس إن نـــأت
عـــن أفقهـــا فلهـــا بـــه أقمار

مـــن كـــان نـــور الـــديـــن ثـــم أجنّـــة
ليـــل السرى حفـــت بـــه الانـــوار

تـــدعـــو البـــلاد إليـــك ألسنـــة الظبـــى
فيجيبـــك الانجـــاد والاغـــوار

حتـــى عمـــدت الـــديـــن يـــابـــن عماده
بقنـــا أسنتهـــا عليـــه منـــار

وقفلـــت مـــن أسفـــار جـــدّك قـــادمـــا
كـــالصبـــح نـــمّ بثغـــره الاسفـــار

يغشـــى البصـــائر نـــور وجهـــك بعـــدمـــا اعـــ
ـــتركت على قسما تـــه الأبصـــار

حتـــى عمـــرت بكـــل قلـــب صـــدره
حيـــث الصـــدور مـــن القلـــوب قفـــار

إن تمس في حلـــب ريـــاحـــك غضـــة
فلهـــا بـــأنطـــاكيـــة إعصـــار

وغـــدت جيـــادك بـــالشـــآم مقيمـــة
ولها بـــأطـــراف الـــدروب مغـــار

همم سبقـــت بها إلى مهـــج العـــدى
صرف الـــردى ومسيره إحضـــار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور رليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عائثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:
ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشـــك يـــا مبيـــد الخيـــل ركضـــا
حمام هـــــنّ تحتــــك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحهـــا فهـــي أزلام المعـــالي
لهنّ إلى الـــوغـــى تـــوق المغـــالي

أمـــا ومقيلهـــن بكـــل نقـــع
يقـــوّض بـــالهدى عمـــر الضـــلال

وأي سيـــوفـــك الحمـــر الحواشي
منـــزلـــة متـــى دعيـــت نـــزال

مـــواض إن سللـــن جـــزمـــا
نفـــاه مـــن الطلى لفـــظ اعتـــلال

لقـــد غلـــب الصليـــب بحـــر حـــرب
يشيـــب أوارهـــا لمم الليـــالي

وشمـــت لنصر هـــذا الـــديـــن بـــأسـاً
يحرّم منـــه كـــل حمى حـــلال

وقـــايـــع أتـــرعـــت في كـــل فـــج
وقـــايـــع جـــوّهـــا دامـــي العـــزال

ومنها:

تســـائل حمص عـــن منسي ديـــن
تقـــاضـــاه لـــك الحجـــج الخوالي

فـــواتـــت وهـــي أخـــت النجـــم بعـــدا
ووعـــدا صيـــغ مـــن مطـــل مطـــال

تشـــامـــخ أنفهـــا عـــزاً وشـــدّت
على أن لا تنـــال يـــدا ينـــال

فما زالت رقاك تجدّ نقضا
لما تثنيه من مرر الحبال
إلى أن أطلق الحسناء كرها
وآل إلى ملاوحة المآلي
يصد الوجه عن شما القت
يد الاشم ذي باع طوال
شغلت بها يمينك والمواضي
تكفل أن مصرا للشمال
إذا فتح القتال عليك أرضا
أباحك أختها لا عن قتال

# فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجـة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأوديـة وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتهـا، وعاد ما صـوح من الزرع والنبـات طرياً ، وحشـد الناس بالـدعاء لنور الـدين وقالـوا: هذا ببركته وحسن معـدلته وسيرته، ثم رحـل من منزله بـالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسـاكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالـدين والرئيس وقال: إنني مـا قصدت بنزول هذا المنـزل طلبا لمحاربتكم ولا منـازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمـر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفـلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطـاني اللّــه ، ولـه الحمـد، مـن الاقتــدار على نصرة المسلمين وجهـاد المشركين وكثرة المال والرجـال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معـرفتي بعجـزكـم عـــن حفـظ أعمالكـم والـذب والتقصير الـذي دعـاكـم إلى الاستصراخ بـالأفـرنـج على محاربتـي، وبــذلكـم لهم أمـــوال الضعفـاء والمساكين مـن الرعية ظلما لهم وتعـديا عليهـم، وهذا لا يرضي اللّـه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بـدّ من المعونة مـن ألف فارس مزاحـي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عـن هذه الرسالة : ليس بيننـا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا مـن الافرنج ما يعيننـا على دفعك إن قصدتنا ونـزلت إلينا، فلما عاد الـرسول بهذا الجواب ووقـف عليه، أكثر التعجـب منه والانكـار له، وعزم على الزحـف إلى البلد ومحاربته في غد ذلـك اليوم، فأرسل اللّـه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

-٧٦٩٢-

## ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك اللّه إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا مــــادمشـــــق ملكتــــك عنـــــانها
تيقـــن مـــن في إيليـــا أنـــه الـــذبـــح
متـــى التـــف نقـــع الجحفلين على الهدى
فـــلا مهمـــة يحوي الضـــلال ولا سفـــح
إذا ســار نـــور الـــديـــن في الجيش عــازمــا
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الصبـــح
تـــركـــت قلـــوب الشرك تشكـــو جـــراحهـــا
فـــلا زالـــت الشكـــوى ولا انـــدمـــل الجرح
صبرت فكـــــــان الصبر غير مغبـــــة
فسيـــق إليـــك الملـــك يسعـــى بـــه النجـــح
كـــأنّ القنـــا تجلـــو لـــه وجـــه أمـــره
ولـــو أمهلـــت بلقيـــس مـــا غـــرّهـــا الصرح
بـــدولتـــك الغـــرّاء أصبـــح ضـــدّهـــا
بهيا ولـــولا الحســـن مـــا عـــرف القبـــح
وكـــم مـــن قـــريـــح القلـــب لـــو بـــات واردا
مـــوارد هـــذا العـــدل مـــا مســـه قـــرح
سخـــابـــك هـــذا الـــدهـــر جـــودا على الـــورى
على أنـــــه مـــــازال في طبعـــــه شـــــح
وقـــد كـــان يمحـــو رســـم كـــل فضيلـــة
ونحـــن نـــراه اليـــوم يثبـــت مـــا يمحـــو
بـــك ابتهـــج الالبـــاب وانتهـــج الحجـــى
وأثمـــــرت الآداب واطـــــرد المدح
ولاذت بـــك التقـــوى، وعـــاذت بـــك العلى
ودانـــت لـــك الـــدنيـــا وعـــز بـــك السرح
فـــلا قلـــب الا قـــد تملكتـــه هـــوى
ولا صـــدر إلاّ قـــد جـــلاه لـــك النصـــح
ومـــــا الجود في الامـــــلاك إلاّ تجارة
فمـــن فـــاتـــه حمد الـــورى فـــاتـــه الـــربـــح

ولم اختصر مـــا قلـــت إلاّ لأنني
اعبر عما لا يقـــوم بـــه الشرح

## فصل

## في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت،وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فـدتـك القلـوب بـألبـابها
وساح الملـوك بـأربـابها
كتـائب تـرمـي جنـود الصليـ
ـب منهـا بتقطيـع أصـلابها
إذا مـا انثنـت مـن قـراع الكما
ة كسـت وفـدهـا وشي أسـلابها
تبرنـس منهـا البرنـس الثيـا
ب وحلتـه مـن وقـع احـلابها
عشيـة غصـت على إنـب
نفـوس النصـارى بغصـابها
وقـام لأحمد محمـودهـا
بجـذع مـوازن أحـزابها

تجلى لها حيــــــــــدري المصــــــــــاع
أغلــــــــب مــــــــود بغــــــــلابها

مــــــــورث أركــــــاسهــــــا مــــــن أب
أكــــــــول الفــــــــوارس شرابها

همام إذا أعصــــــــوصبــــــت نبــــــوة
دهــــــاهــــــا بها شــــــم أعصــــــابها

مضــــــى وجنــــــى لــــــك حلــــــو الشهــــــا
دمــــــا تمطــــــق مــــــن صــــــابها

وأوصــــــى بها لــــــك مــــــن بعــــــدمــــــا
تجرّع ممقــــــــــــر أو صــــــــــابها

واقســــــــم جــــــــدّك أن لا يليــــــــ
ــــــق بغيرك ملبــــــس أثــــــوابها

صبحــــــت دمشــــــق بمشــــــق الجيــــــاد
زبــــــور الــــــوغــــــى بين أحــــــدابها

واصلــــــت رأيــــــك قبــــــل الحســــــا
م مخمــــــــــد جمرة أجــــــــــلابها

فــــــأعطتــــــك مــــــا لم تنلــــــه يــــــد
وفــــــازت رقــــــاك بــــــأصحــــــابها

وأنــــــت تصرف فضــــــل الــــــزمــــــا
م مــــــن حمص تــــــأخير ركــــــابها

تخوّنها الجور فــــــاستــــــدركــــــت
بعــــــدلــــــك أغبــــــار ظبظــــــابها

وفــــــاجــــــأت قــــــورس بــــــالشــــــائلات
تمج القنــــــاســــــم اذنــــــابها

فما رمــــــت حتــــــى رمــــــت بيضهــــــا
إليــــــك أزمــــــــة ضرابها

وعــــــزت عــــــزاز فــــــاذللتهــــــا
بمجــــــرى مضيــــــق لاسهــــــابها

بـــــاشمـــخ مـــن أنفهـــا منكبـــا
وأكثـــــر مـــــن عـــدّ طـــــورابها
دلفـــــت لعيطـــــا أم النجـــــو
م في الأمـــــرايطـــــاء أتـــــرابها
وعـــذرا مـــذ عمـــرت مـــا اهتـــدت
ظنـــــون الليـــــالي لاحـــــزابها
تفـــــرعتهـــا بفـــــروع الـــــوشـــــ
ـــــيج مثمـــــرة هـــــام أوشـــــابها
وعـــــوج إذا انبضـــــت اغمضـــــت
ذكـــــاء لارســـــال نشـــــابها
ومحدود بـــــات تطير الخطـــــوب
مـــــلافـــــظ ألســـــن خطـــــابها
تصـــــوّب عقبـــــان ريـــــب المنـــــون
متـــــى بنتهـــــا بـــــاعقـــــابها
ومـــــا ركعـــــت حـــــول شـــــم الهضـــــا
ب الاسجـــــدن لانصـــــابها
فـــــلاذت بمعتصـــــم بـــــالكتـــــا
ب وهـــــوب المهالـــــك ســـــلابها
بمعتصمـــــي الـــــذرى والهدى
هموس السرى غير هيـــــابها
محلى المحـــــل بـــــوصـــــف الفتـــــو
ح ووصـــــف التهـــــاني وأربـــــابها
وتعجـــــز مـــــداحـــــه أن يحيـــــ
ـــــط بـــــآدابـــــه فلـــــك آدابهـــا
بـــــدائع لـــــورددهـــــرمـــــ
ـــــين بنـــــات حبيـــــب بـــــاحبـــــابها
وأيـــــن ابـــــن أوس وآيـــــاتـــــه
مـــــن الـــــلاء أودت بحســـــابها

مــــن الـــــلاء عــــــاد عتيـــــق لها
وردّ عليهـــــــا ابـــــــن خطـــــابها

فـــأيـــــامـــه مـــــن حبـــــور تكــــا
د يطير بها فــــــــــرط إعجــــــابها

لـــــك الفضـــــل إن راسلتـــــك الجيـــــا
د وقـــــــامــــت أدلــــــة أنجــــابها

إذا أغتسقـــــــت هـــمـم الجائريــــــن
أتيـــــت السيــــــادة مـــــن بـــــابها

أبـــــوك أبـــــوهـــــا وأنـــــت ابنهـــا
العـــــريــــــق ودميـــــه محرابها

أقـــــول لمـــــؤجـــــره بـــــالغـــرو
ر تمطـــــت هــــواهـــــا فـــــأهــــوى بها

حـــــذار فعنـــــد ابتســـــام الغيــــو
ث تخشـــــى صـــــواعـــــق الهابها

ولا تخدعــــــوا بـــــافترار الليــــو
ث فـــالنــــار في بـــــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

## فصل

## في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لايقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره وحاق به مكره ( ولايحيق المكر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب و،عزاز وقورس ،والراوندان ،وحصن البارة، وتل خالد،وكفر لاثا وكفر سود ،وحصن سرفوت بجبل بني عليم ،ودلوك ،ومرعش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

- ٧٦٩٩ -

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصنا لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ السيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فامست ولا اسر تخاف ولا إصر

فـان صـافحـت يمنـاك مـن بعـد هجـرهـا
فـاحلى التـلاقـي مـا تقـدّمـه هجـر
وهـل هـي الا كـالحصـان تمنعـت
دلالا وان عـز الحيـا وغـلا المهـر
ولكـن إذا مـا قستهـا بصـداقهـا
فليـس لـه قـدر وليـس لها قـدر
هـي الثغـر أمسـى بـالكـراديـس عـابثـا
وأصبـح عـن بـاب الفـراديـس يفتر
على انها لـو لم تجبـك إنـابـة
لارهقها مـن بـأسـك الخوف والـذعـر
فـامـا وقفـت الخيـل نـاقعـة الصـدى
على بـردا مـن فـوقهـا الـورق النضر
فمـن بعـد مـا أوردتها حـومـة الـوغـى
وأصـدرتها والبيـض مـن علـق حمر
وجللتهـا نقعـا أضـاع شيـاتها
فـلا شهبهـا شهـب ولا شقـرهـا شقـر
على النهـر لما كـاثـر القصـب القنـا
مكـاثـرة في كـل نحـر لها نحـر
وقـد شرقـت أجـرافـه بـدم العـدى
إلى ان جـرى العـاصي وضحضـاحـه غمـر
صـدعتهـم صـدع الـزجـاجـة لا يـد
لجابـرهـا مـا كـل كسر لـه جبر
فـلا ينتحـل مـن بعـدهـا الفخـر دائل
فمـن بـارز الابـرنـز كـان لـه الفخـر
ومـن بـز انطـاكيـة مـن مليكهـا
أطـاعتـه ألحاظ المؤللـة الخزر
أخـو الليـث لـولا غـدرة نـزعـت بـه
إلى الـذئب إن الـذئب شيمتـه الغـدر

أتـــى رأســـه ركضـــا وغـــودر شلـــوه
وليـــس ســـوى عـــافي النســـور لـــه قبر
وقـــد كـــان في استبقـــائه لـــك منـــة
هـــي الفتـــك لـــو لم تغضـــب البيـــض والسمـــر

كما أهـــدت الاقـــدار للقمـــص اسره
وأسعـــد قـــرن مـــن حـــواه لـــك الاسر
طغـــى وبغـــى عـــدوا على غلـــوائه
فـــأوبقـــه الكفـــران عـــدواه والكفـــر
والقـــت بـــأيـــديها إليـــك حصـــونـــه
ولـــو لم تجب طـــوعـــا الجاء بها القسر
وأمســـت عـــزاز كـــاسمهـــا بـــك عـــزة
تشـــق على النسريـــن لـــو أنها الـــوكـــر
فسر واملأ الـــدنيـــا ضيـــاء وبهجـــة
فبـــالافـــق الـــداجـــى إلى ذا السنـــا فقـــر
كـــأنـــي بهذا العـــزم لافـــل حـــده
وأقصـــاه بـــالأقصـــى وقـــد قضي الامـــر
وقـــد أصبـــح البيـــت المقـــدس طـــاهـــرا
وليـــس ســـوى جـــاري الـــدمـــاء لـــه طهـــر
وقـــد أدت البيـــض الحداد فـــروضهـــا
فـــلا عهـــدة في عنـــق سيـــف ولا نـــذر
وصلـــت بمعـــراج النبـــي صـــوارم
مســـاجـــدهـــا شفـــع وســـاجـــد هـــاوتـــر
وإن يتيمـــم ســـاحـــل البحـــر مـــالكـــا
فـــلا عجـــب أن يملـــك الســـاحـــل البحـــر
سللـــت سيـــوفـــا أثكلـــت كـــل بلـــدة
بصـــاحبهـــا حتـــى تخوفـــك البـــدر
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في عـــزمـــاتـــه
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الفجـــر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـــت شـــم المنـابــر بـاسمـــه
كما زهيـــت تيهـــا بـــه الأنجـــم الـــزهـــر

فيـــا كعبـــة مـــازال في عـــرصـــاتها
مـــواسم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـــلابس مـــن أعـــلامهـــا الحمـــد والشكـــر

وتـــوّجـــت ثغـــر الشـــأم منـــك جـــلالـــة
تمنـــت لها بغـــدادلـــو أنها الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بها مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــاطـــا لما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـــت في الافـــرنـــج مـــن كـــان بـــأســـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـــت جـــرد الخيـــل أعلى حصـــونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـــات الحافظـــات فـــروجهـــا
فشـــاهـــدهـــا عـــدل ورائقهـــا سحـــر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســـوى أنها مـــن بعـــد عمـــر الفتـــى عمـــر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا
ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة
يحامي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسأل الصب أين فؤاده
فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم
غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها
سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما سما في مبهم الخطب وجهه
تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى
منافسة أي الثلاثة تربه
يعدّ مضاء في الظبى لا وضربه
بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
إلى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت
وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها
فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
مليّ برعي الهند وأنى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية
ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت
كوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه

وعـــاصي على العـــاصي بـــأرعـــن خـــاطـــب
دم الأفـــك حتـــى أنكـــح النصـــل خطبـــه
بـــــانّـــــب لما أكســـــب المال وانثنـــــى
بصـــاحـــب أنطـــاكيـــة وهـــو كسبـــه
غـــداة هـــوى شطـــريـــن للسيـــف رأســـه
وللـــرّمـــح حتـــى تـــوّج الـــرأس قلبـــه
على حين للخطـــــيّ فيـــــه عـــــوامـــــل
يعـــاقبـــه خفـــض الحســـام ونصبـــه
وقـــائع محمـــوديـــة النصر لم تـــزل
غـــريبـــا بها عـــن مـــوطـــن السيـــف غـــربـــه
يقـــوم مقـــام الجيـــش فيهـــا وعيـــده
وتفعـــل افعـــال الكتـــائب كتبـــه
وحين انتضتـــه عـــزمـــة مـــن قـــرابـــه
مضـــى وهـــو نصـــل والممالك قـــربـــه
إلى أن دعتـــه ربها كـــــل بلـــــدة
فليـــس مـــن الأمصـــار مـــا لا يـــربـــه
ولما تـــرى بـــالقمـــص عجـــب هـــوى بـــه
على أم رأس البغـــي والغـــدر عجبـــه
فـــأصبـــح في الحجلين ينكـــر خطـــوه
بعيـــد على الـــرجلين في السعـــي قـــربـــه
تعـــاقبـــه البشرى بـــأخـــذ حصـــونـــه
فيـــا عـــانيـــا ضرب البشـــائر ضربـــه
تنـــاجـــي عـــزاز بـــاسمـــه تـــلّ بـــاشر
فيلعنـــه لعـــن الصريـــح وسبـــه
فـــان يكـــن المقهـــور مـــن ثـــل عـــرشـــه
فهـــذا عمـــود الكفـــر قـــد طـــاح طنبـــه
فقـــل للمـلـــوك الخافقين نصيحـــة
كـــذا عـــن طـــريـــق الليـــث يـــزأر غلبـــه

وخلـــوا عـــن الافـــاق فـــالشرق شرقـــه
بحكـــم الـــردينيـــات والغـــرب غـــربـــه
ولا يعصـــم بـــالـــدرب طـــاغ على القنـــا
فـــإن القنـــا في ثغـــرة النحـــر دربـــه
رحيـــب فضـــاء الحلـــم عـــن ذات قـــدره
إذا ضـــاق مـــن صـــدر ا لمملـــك رحبـــه
عفـــوّ عـــن الجاني يكـــاد الـــذي جنـــى
بكـــرّبـــه شـــوقـــا إلى العفو ذنبـــه
أمتخـــذ الاخـــلاص للّـــه جنـــة
ومـــن يعتصـــم بـــاللّـــه فـــاللّـــه حسبـــه
أبـــوك استردّ الشـــأم بـــالسيـــف عنـــوة
وللـــروم بـــأس طـــا لما غـــال خطبـــه
إذا ذب عـــن أضغـــاث دنيـــاه مـــالـــك
فـــانـــت الـــذي عـــن حـــوزة الـــديـــن ذبـــه
رأيـــت اتبـــاع الحق خير مغبـــة
فـــأفـــرجـــت عـــن رأي يسرك غبـــه
وأوضحـــت مـــا بين الفـــريقين سنـــة
بها عـــرف المربـــوب مـــن هـــو ربـــه
وبينـــت نـــور الـــديـــن مـــا كـــان يبتغـــي
دليـــلا بـــأن اللّـــه مـــن أنـــت حـــزبـــه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهـــات يعصـــم مـــن أردت حـــذار
أنـــى ومـــن أوهـــاقـــك الاقـــدار

ومنها:

طلعـــت عليـــك بجـــوسلين ذريعـــة
لاسحـــل انشـــاهـــا ولا امـــرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــا بنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــاجـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لامترف لاه ولا جبـــــــــــــــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا الـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــاكـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لاتـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــل ء سريـــره اسرار

صـــاف إذا كــدرا المعـــادن عــادل
إن حـــاف حكـــام الملـــوك وجـــاروا.
أعلى أبـــوه لـــه النجـــاد وشيـــد في
صهـــواتها ممـــا ابتنـــاه منـــار
محمـــــودا المحمـــــود آثـــارا إذا
نظمـــت على جيـــد الـــدجـــى الاسمار
ذانـــت لـــه الايـــام صـــاغـــرة كما
دانـــت لـــه ظلـــه الامصـــار

له من أخرى أوّلها:
مـــا الملـــك الا مـــا حـــواك نجـــاده

يقول فيها:
وتـــديـــن حســـده لمحكـــم آيـــة
والفضـــل مـــا شهـــدت بـــه حســـاده
شمـــس إذا مـــا الحرب زر جيـــوبها
حـــل المعـــاقـــد كـــرّه وطـــراده
ألـــوى ألـــدّ حمى الشريعـــة جهـــده
وأذل نـــاصيـــة الضـــلال جهـــاده
صعـــق البرنـــس وقـــد تـــلالأ بـــرقـــه
واطـــار ســـاكـــن جـــأشـــه ارعـــاده
ولى وقـــد سلـــت فسلـــت ضغنـــه
زبـــر تلقـــى فـــودهـــن فـــؤاده
مستلئما مستسلما لاعـــــــدّه
ردّ المنـــى عنـــه ولا استعـــداده
ولجوسلين احتثهـــن فـــاصبحـــت
نهبـــى لهن بـــلاده وتـــلاده
جـــاءت بـــه بعـــد الشماس عـــوابـــس
قـــود يلين لعنفهـــنّ قيـــاده

بـــــه تصيـــــد لـــــك السعـــــود وقلما
ينجـــو بخير مـــــن أردت مصـــــاده
دانـــــى لـــــه قينـــــاه أدهـــــم كلما
غنـــــاه طـــــار شما تـــــه عـــــوّاده
سلبـــــت عـــــزاز عـــــزاءه وبقـــــورس
محجـــوبـــة فـــرشـــت لـــه اقتـــاده
وبتـــل خـــالـــديـــوم تـــل جبينهـــا
خلـــط الثـــرى بجبينـــه اخـــلاده
وغـــدا يبـــاشر تـــل بـــاشر قلبـــه
بـــاحـــرّ مـــا حمل القلـــوب عـــداده
منـــت أمـــانيـــه بشـــائرك التـــي
عـــادت لهن مـــا آثما أعيـــاده
وحبـــوت ملكـــك مـــن نظيـــم ثغـــوره
حليـــا تتـــايـــه تحتـــه أجيـــاده
لايخدعنـــك فـــانها اصـــلاح مـــن
يخشـــى انتشـــاط خنـــاقـــه افســـاده
أنـــزلـــه حيـــث قضـــت لـــه غـــدراتـــه
واحلـــه طغيـــانـــه وعنـــاده
في حيـــث لا يـــأوي لـــه سبحـــانـــه
حنقـــا ويكشـــط جلـــده جـــلاده
وثـــن هـــدمـــت بنـــي الضـــلال بهدمـــه
وعـــدت عبـــادك عنـــوة عبـــاده
فتكـــت بـــه آيـــات مـــن لمحمـــد
ولـــدينـــه ابـــداؤه وعـــواده
او انشـــط البلـــد الحرام تـــواءمـــت
تثنـــي عليـــه تـــلاعـــه ووهـــاده
ولـــــو ان منبره أطـــــاق تكلما
نطقـــت بيـــاهـــر فضلـــه اعـــواده

نام الخليفة واستطال لذبه
عن سدتيه واستطير رقاده
رجعت لك العز القديم سيوفه
ما زان رونق مائها اغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه
ورأيت زرع الملك حان حصاده
انى تميل الحادثات رواقه
بهبوبها وابن العماد عماده

## فصل

قال ابن الاثير : لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضا، وأبقى بعضاً ، فاجتمعت الفرنج فالتقوا مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هي الخيل خير عتاد الكريم
يحضر للهم احضارها
ضغمت فأدررت أفواهها
وسرت فقلمت أظفارها
الام ولم تبق مما غزو
ت قلوبا تكابد إذ عارها
أما في مفصل آي القرا
ع أن تضع الحرب أوزارها
عسى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتوكر أوكارها
وما يوم من غلته واحد
فتودعه اللسن أشعارها
وأين المقاول مما فعلت
ولو شفع الفطراء كثارها

فكـــم اجلبــت خلفـــك الجافخـــا
ت(٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعــــدت بعصرك هـــــذا الانيـــــ
ــق فتــوح · النبـــي واعصــارهــا

وكــان مهـــاجـــرهـــا تـــابعيـــ
ـــك وانصـــار رأيـــك انصـــارهـــا

فجـــــــدّدت اســـــلام سلمانها
وعمـــــر جـــــدك عمارهـــــا

ومـــــا يـــــوم إنـــــب الاكتيـــــ
ـــك بـل طـــال بـــالبــوع اشبــارهـــا

وأيـــــامـــــك الغـــــر مـــــن بعـــــده
يعيـــــد إلى الطـــــي اغـــــرارهـــــا

ولما هبيـــــت ببصرى سمكـــــت
بـــــاهبـــــاء خيلـــــك أبصـــــارهـــــا

ويـــــوم على الجون جـــــون السرا
ة عـــــز فسعطهـــــا عـــــارهـــــا

صـــدمـــت عـــريمتهـــا صـــدمـــة
أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

وفي تبـــــل بـــــاشر بـــــاشرتهم
بـــــزحـــــف تســـــور أســـــوارهـــــا

وإن دالكتهـــــم دلـــــوك فقـــــد
شـــــدّدت فصـــــدقـــــت أخبـــــارهـــــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت
عليهـــــا فـــــولتـــــك أدبـــــارهـــــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت
على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلـــــذ الاغـــــاني تـــــرجيعهـــــا
ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا

بنيـــــت لـــــوفــــدالمنـــــى كعبـــــة
تجير المعلـــــــق استـــــــارهـــــــا
وملكـــــــــــــــت الاراضي مغبرة
تكـــــــاد تحدّث أخبـــــــارهـــــــا
فمازلــــــت تــــــدجـــــن حتــــــى محو
ت دجـــاهـــــا وشعشعـــث أنـــــوارهـــا
وصلـــــت فـــــأعـــــزرت مسكينهـــــا
وصلـــــت فـــــأذللـــــت أبـــــارهـــــا
وصغـــــت حلى مـــــن عـــــلاً أحكمـــــت
على عنـــــق الـــــدهـــــر أزرارهـــــا

قـال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفـره بعسكر الآفـرنج النازلين بازائه قـريبا من تـل باشر، وعظيم النكايـة فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيـام من محرم وصـل جماعة مـن حجاج العـراق وخراسـان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهـم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة مـا نزل مثلها بـأحد في السنين الخاليـة، ويكون أبشع منهـا، وذكر أنه كـان في هذا الحاج مـن وجوه خـراسان وأعيـانها وفقهائهـا وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكـر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمـة والأمتعة الـوافـرة فـأخذ جميـع ذلـك وقتـل الأكثر، وسلـم الاقـل، وهتكـت النساء وسلبـن وهلـك من هلـك بـالجوع والعطـش، فضاقـت الصدور لهذه النازلـة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعـانوا به على عودهـم إلى أوطانهم مـن أصحاب المروءة بـدمشق(ذلـك تقديـر العزيـز العليم)(٦٠).

# فصل

قال: وكان مجاهد الدين بزان قد توجه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله، فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، و توجهوا ولم يتعرض لشيء من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار، ووقوع الحرب وسفك الدماء إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيها في سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسن الحديث في الجدّ والهزل، وكان له يوم مشهود ودفن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

- ٧٧١٣ -

## ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا اجيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي ادّ
رع الضلال على أغر مشهر
قل ده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لا خبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يــــات العـــزيــــز ويقظــــة المستنصر
شمـــر فقـــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغـــايـــات غير مشمـــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا لمعـــروف أنـــف المنكـــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــ
ــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــر
يـــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــر
آثـــارهـــم نجـــس اذال المسجـــد الـــ
ــأقصى فصـــن مـــادنســـوه وطهـــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــون وسيـــف البربـــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــ
ــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـان غير مكـــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الآ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصــــائد أصبحــــت أبكــــارهـــــا
في ظــــل ملكــــك غــــاليــــات الأمهـــــر
إن كنـــــت أحييـــــت ابـــــن حمدان لها
فـــانـــا الـــذي غبرت في وجــــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نــوّهـــوا
بـــاسـم ابـــن أوس واستخصـــوا البحتري
ذلـــت لـــدولتــك الـــرقـــاب ولا تـــزل
ان تغـــز تغنـــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى ســـد ثلمـــة ملكــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــارمـــاه فتصرد
صدمــت ابـن ذي اللغـديـن فـانحـل عقـده
وكـــا السلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـــا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــوس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبــــلاء مـــوكــــل
ولا بـــد مـــن يـــوم بـــه تتهـــوّد

وأقســـم مـــا ذاق اليهـــود بـــا يليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود

كبعــض الــذي جــرّعتــه فسرطتــه(٦١)
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد

ولا يتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤبـــد

رمـــاك ببـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد

وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد

تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنما أنـــت مقعـــد

امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد

بمحمـــود المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد

وهـــل يستـــوي ســـارتـــأســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد

تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعما فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد

تخذت بنـــي الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفســـدوا

لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ــموالى وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد

إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مــــا مصر إلاّ بعــــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــــره تسعـــــــى قماء وتحفـــــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـــه الصفـح ديـن واقبلـوا النُصح تـرشـدوا
ولا تـــرشفـــوا انفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يــــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــادو سمهـــا ليـــس يجحـــد
ولا تكفــــروه إنما أنتـــم لـــه
ومنـــه و يـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــدُ
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد
وأيقـــن مـــن بين الســـديـــر وجـــاسم
بـــان الحرار الســـود بـــالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخــــدّ خيلـــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــالمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو و يسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـــا سيـــف شـــامتـــه يـــد الملك صـــارمـــا
فيمهمـــد إذ يسري و يسري فيهمـــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القـــدس سرحـــة
ومـــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد
حموهـــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر محدّد
متـــى انـــاراء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:
نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتها ربعـــه ومقـــراهـــا
أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا
فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميـــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا
دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا
لابســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـابين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغـد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدى المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوّة ، وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ثم رحل عسكر الافرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الافرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدّة، وذكر أن عدّة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار.وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به،واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والأفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ، ثم رحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غيرزحف ولا شدّ في محاربة تحرجا من قتل المسلمين، وقال: لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسان المنبجي مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات ، وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخرة، ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الأفرنج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نو ر الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أوّلها :

مـا بـرقـت بيضـك في غمامهـا
إلا وغيـث الـديـن لابتسـامهـا

يقول فيها:

محمـــــودا المحمـــــود جــــــداً وجـــــداً
أرخـــص جلـــد الارض حكـــم عـــامهـــا

ملـــك أزل الــــروم عـــن صلبـــانها
دفـــاعـــه وكـــب مـــن أصنـــامهـــا

جـــال على الجولان أمـــس جـــولـــة
صفــرت الأدحـــيّ مـــن نعـــامهـــا

والجون قـــد جـــرعهـــا أجـــونـــه
وفـــل مشحـــوذا مـــن اعتـــزامهـــا

وشـــدّ في القـــدّ لـــه مليكهـــا
قـــود عتـــود القـــوط في شبـــامهـــا

وفي الـــرهـــا صـــابـــت لـــه سحـــابـــة
صـــاروا جفـــاء خـــف في التطـــامهـــا

وهـــب في هـــاب لـــه عـــواصـــف
تجهمتهـــا الهف مـــن جهـــامهـــا

وكفـــر لاثـــالاث في جبينهـــا
لثـــم ظبـــى أتـــت على لثـــامهـــا

وقـــايـــع يـــرفـــض تحت وقعهـــا
نظـــم الثـــريـــا في فضـــا مصـــامهـــا

فســـاعـــة البيـــض إذا عـــدّدهـــا
ســـوط عـــذاب صـــب في أيـــامهـــا

واعجبـــا العصـــب الشرك التـــي
لم يعصـــب الـــرشـــد على أحـــلامهـــا

حكمـــة استـــواؤهـــا في غيهـــا
في نقـــض مـــا أحصـــد مـــن ابـــرامهـــا

مظفـــر الـــرايـــات والـــرأي إذا الـــ
ـــحرب مشـــت تعثـــر في خطـــامهـــا

عـــدّت بـــه حـــدّ العـــلاء همم
هـــن النجـــوم أو نـــواصي هـــامهـــا

جلـت لـه الـدنيـا على زبـرجهـا(٦٢)
عفـوا فلـم يلـو على حطـامهـا
رأتـه وهـو الليـث يـدمـي ظفـره
انفـذ في المشكـل مـن حكـامهـا
فتـوّجتـه العـز في مـرتبـة
تمنطـق الجوزاء في نظـامهـا
غضبـان لـلاسـلام لا يغيظـه اسـ
ـتسلامها للقسر مـن إسـلامهـا
خـط على مثـل أب طـاعـت لـه الـ
ـآفاق واستشرف لاغتشـامهـا
تصرف الـدنيـا على إيثـاره
عـراقهـا مستردفـا بشـامهـا
لـو لم يكـن دون منـى فـات المنـى
واقعـد الفـائز مـن قـوّامهـا
وامتـك مـاء مكـة رواضـع
يقصر بـاع الـدهـر عـن فطـامهـا
وصـار كـالجمـر الجمار وخـلا
مـن أهلـه الأشرف مـن مقـامهـا
ودونها الازلـت تـرقـى في حمى
مـن مـئـؤلم الارداء أو لمامهـا
تلبـس بيـت اللّـه وشـي يمـن
يقـرأ آيـاتـك مـن أعـلامهـا
فـإنها الـديـن رحـى قطبتهـا
وبـازل مكنـت مـن زمـامهـا
امـت بنـا الآمـال منـك كعبـة
سلـم الليـالي آيـة استسـلامهـا
وارشفتنـا بـك ثغـر نعمـة
لانسـأل اللّـه سـوى دوامهـا

وقال أيضا يمدحه:

بجـــــدك اصحـــــب الجد الحزون
واطلـــع فجـــره الفتـــح المبين

وفي كنفيـــك ســـولمت الليـــالي
وفـــارق طبعـــه الـــزمـــن الخؤون

ومنـــك تعلـــم القطـــع المواضـــي
وقـــد زبنـــت بها الحرب الـــزبـــون

وأنـــت السيـــف لم تمســـه نـــار
ولا شحـــذت مضـــاربـــه القيـــون

تـــرقـــرق فـــوق صفحتـــه الامـــاني
ويقطـــر مـــن غـــراريـــه المنـــون

وقبلـــك مـــا سمعـــت بـــذي فقـــار
يثير الفقـــر كـــان ولا يكـــون

ولا غيـــث سماوتـــه سريـــر
ولا ليـــث وســـادتـــه عـــريـــن

ولا قمـــر لـــه الهيجـــاء هـــال
ولا تـــاج لـــه الـــدنيـــا جبين

جبلـــت نـــدى وعفـــواً وانتقـــامـــا
ومـــاء كـــل مجبـــول وطين

وملكـــك عمـــر الأقطـــار قطـــرا
فـــأمـــرعـــت الأواعـــث والحزون

تـــلالأ تحتـــه غـــرر الليـــالي
إذ الايـــام عنـــد ســـواك جـــون

وأنـــت أقمـــت للجـــدوى منـــارا
يبين لشـــائميـــه ولا يبين

وعنـــدك مشرب النعمـــى زلال
إذا عبقـــت مشـــاربها الأجـــون

تحكـــم في عطـــائك كـــل عـــاط
وقـــد شيـــدت مـــن المنـــع الحصـــون

لقد أشعرت دين اللّه عزا
تتيه له المشاعر والحجون

وقام بنصره والناس فوضى
قويّ منك في الجلى أمين

رجعت ملوكهم وهم خيوف
أسير في صفادك أو كنون

فبرنست البرنس لقاع خسف
وجرّع مرّ جوسك جوسلين

إذا ما الفعل علّ تلاه حذف
يتاح لمنتهاه أو سكون

غنوا حتى غزوتهم فغنى الصـ
ـدى في أرضهم حف القطين

وكم عبر الصليب بهم صليبا
فردّته قناك وفيه لين

وما خطرت بدار الشرك إلاّ
هوى الناقوس وارتفع الاذين

ملأت عظام ساحهم عظاما
فكل ملا لقوك به جرين

بإنب والقنا تجري نجيعا
كأن عيون أكعبها عيون

وبين حرار صرخد ذبن حرّا
له في كل حبحبة كمين

وفين من العريمة في عرام
له في جونها الأقصى وجون

وكم حرم لحارم غادرته
ودارته لمنسفها درين

وفي شعراء قورس صغن شعرا
تدار على غراريه اللجون

وقـــــائع صرن في صنعـــــاء طيرا
يــوقعهـــا على عـــدن عـــدون
نماك أب إذا عـــدّ انتســـابـــا
تـــراقـــى مصعـــدا والنـــاس دون
شما لا كـــان أمـــلاك البرايـــا
وقـــد قيســـوا بـــه وهـــو اليمين
قضـــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــة أهلهـــا لبنيـــه ديـــن
لهذا اليـــوم تنتخـــب القـــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون
ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون
سلمـــت لنـــا فـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــه بـــأن تبقـــى يهون
تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

## فصل

## في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديـار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهـد مثله فى حديث ولا قديم بحيـث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلـغ سبعة آلاف شخص، وفي سنـة ست وأربعين مثلهـم، فصار الجميـع أربعة عشر ألفاً، وخلـت دور كثيرة من أهلهـا، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القـاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديـد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتـا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
بأذلة افلاذ أكبادها

وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها

تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها

خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها

شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها

رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بايقادها

فيممت منك حيا مزنة
بيض الايادي وردروّادها

فـــاســـأل مجير الـــديـــن عـــن خبرة
أوردهـــا محمـــود إيـــرادهـــا

تبـــوّأت مـــن عـــزهـــا قبـــة
سمـــر القنـــا أطنـــاب أوتـــادهـــا

تنـــافـــس النـــاس على دولـــة
فـــت بها أعين حســـادهـــا

يغـــدو المعـــادي كـــا لموالي لها
فـــوالها إن شئـــت أوعـــادهـــا

يـــا ملكـــا يـــزهـــى بـــاسمائه
منـــابـــر تسمـــو بـــأعـــوادهـــا

وتـــأخـــذ الاسماع أوصـــافـــه
عـــن جمع الـــدنيـــا وأعيـــادهـــا

كـــم للمعـــالي فيـــك مـــن رغبـــة
تفنـــى الأمـــاني دون تعـــدادهـــا

لـــك المســـاعـــي الغـــر يـــا جـــامعـــا
مـــن طـــرفيهـــا بين أضـــدادهـــا

يغنـــي الـــورى أفـــرس فـــرســـانها
وفي التقـــى أزهـــد زهـــادهـــا

فـــانـــت نسكـــا غيـــث أبـــدالها
وأنـــت فتكـــا ليـــث آســـادهـــا

في أمّـــة أنـــت حمى دينهـــا
حينـــا وحينـــا شمـــس عبـــادهـــا

يطـــوى بـــك العمـــر إلى غـــايـــة
حسبـــك تقـــوى اللّـــه مـــن زادهـــا

هـــذا وكـــم مـــن سنـــة بـــدعـــة
أعـــدمتهـــا مـــن بعـــد إيجادهـــا

مـــآثـــر لـــو عـــدمـــت راويـــا
تكفـــل النظـــم بـــاسنـــادهـــا

قـال أبـو يعلى: وفي أواخـر شعبان أغـار بعـض التركمان على ظـاهـر بـانياس، فخـرج إليهم واليهـا من الأفـرنج في أصحـابه، وظهـر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصـد بعض الفـرنج نـاحية مـن البقاع وأغـاروا، فأنهض إليهم والي بعلبـك رجالـه فلحقوهـم وقد أرسـل اللّه عليهـم من الثلـوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلـت: والي بعلبك هـذا هو نجـم الديـن أيـوب والد صـلاح الديـن يوسف.

قال ابـن أبى طـي: في سنة سـت وأربعين أغار التركمان على بـانياس فخرج أهل بانيـاس من الفرنج استنقذوا ما أخـذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصـل ذلك بصـاحب دمشق فـأغضبه فعـل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فـأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنـج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغـارة على البقاع، والناس غافلـون، فامتلأت أيديهم مـن الغنائم والأسارى، واتصل خبر غـارة الفرنج بنجم الدين أيـوب، وهو في بعلبك وعنـده جماعة مـن عسكر دمشـق وأصحابـه، فقدّم عليهـم ولده شمـس الدولـة ، فخرج وأوقع بـالفرنج، واتفـق أنه كان قـد أصاب الفرنـج ثلج عظيم، فهلـك أكثرهـم، وجاء شمس الـدولة وهم متـورّطون فقتـل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنـة فارق صلاح الديـن والده وصار إلى خدمـة عمه أسد الـدين بحلـب، فقدّمـه بين يدي نور الـدين فقبلـه وأقطعه إقطـاعا حسنا.

قـال أبو يعلى: وفي ثـاني شوال ، وهـو الثـاني من شبـاط وافت قبيـل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل

أبداً تهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل

إما كتاب يستقل به الكتائب
أو رسول للنجاح رسيل

لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)

نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصول

سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل

سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل

فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجنى رضاك كفيل

وأقام ينشر في العراق ودجلة
آياً تأوّلها لمصر النيل

وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل

كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

أليـــوســـف لما طلعـــت مقـــرطقـــا
طمثـــت حصـــان واستخـــف أبيـــل
أم عـــن سليمان يفـــرج ضـــاحكـــا
سجـــف الـــرواق وضعضـــع الكيـــول (٦٤)
ومملـــك في السرج أم ملـــك سطـــت
لبهـــائه عقـــل وتـــاه عقـــول
وبـــرزت في لبـــس الخلافـــة كـــالهلا
ل جـــلاه في حلـــل الـــدجـــى التهليـــل
خلـــع خلعـــن على القلـــوب مسرة
ســـدكـــاتها (٦٥) التعظيـــم والتبجيـــل
نشـــرت نضـــارا جـــامـــداً أعـــلامهـــا
وتكـــاد تجري رقـــة وتسيـــل
لقضـــى لها ان لا عـــديـــل لفخـــرهـــا
ربّ بـــراك فما تـــلاك عـــديـــل
أنـــت المهنـــد منـــذ سلتـــه العلى
لم يخل مـــن مهـــج عليـــه تسيـــل
مـــذ هـــز قـــائمـــه الامـــام تـــألقـــت
غـــرر شـــد خـــن لملكـــه وحجـــول
واليـــت دولتـــه فتهـــت بـــدولـــة
متكلـــل بصعيـــدهـــا الاكليـــل
ونصرتـــه فحـــلاك أبيـــض دونـــه
صرف الـــزمـــان إذا استكـــل كليـــل
قلـــدتـــه وكـــلاكما متلهـــذم
عضـــب فـــزان المغمـــد المسلـــول
وحبـــاركـــابـــك حين قـــرّ بـــزحفـــه الـــ
ـــقرآن واستخـــذى لـــه الانجيـــل
بـــأقـــبّ أصفـــر مشرف الهادي لـــه التـــ
حجيـــل لـــون واللها تحجيـــل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهدولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزمة الاقدار طوع يديك والـ
أيام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ
معدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّ نماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيت للاسلام وهو مصوّح
فاهتز هضاب ورق نجود
وفتأت جمرة صالمية بصيلم
نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح
نفس الارين لو أرهنّ برود(٦٧)
ورموا على الجولان منك بجولة
توئيدها نسر الضلال وئيد
ولحا عظامهم بعرقه عارق
مازلت تمخض جوّه فيجود
وشللت بالروج السروج وفوقها
زرع لمحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم
ملك مقيد من عصاه مقيد
ويتل باشر باشروك فعافسوا
أهب الاساود حشوهنّ أسود
أودوا كما أودى بعادغيها
زعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
إن آلموا عقرا فانك صالح
أو آلموا غدرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة
خدّ به من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب ملء الملا
شتى وإن خلّ البسالة عود
أثارها محمودة وآثارها
مشهودة وشعارها محمود
لبست من اسمك في الكريهة ملبسا
يبلي جديد الدهر وهو جديد

- ٧٧٣٤ -

قصيرة الآجال طوّل باعها
بوع يسامي هامها وقدود

مطرورة الأسلاب مذ هزعتها
تاه الهدى وتبختر التوحيد

أشرعتها فعلى شريعة أحمد
مما جنته بوارق وعقود

ولكم نثرت نظيمها في موقف
تغريد صالي حره التغريد

يجلو سناك ظلامه ويحل ما
عقدت قناه لواؤك المعقود

في هبوة زحم السماء رواقها
والارض ترجف تحته وتميد

ضربت مخيمها فكان كماتها
أوتاده القصوى وأنت عمود

في كل يوم من فتوحك صادح
هزج الغناء وطائر غرّيد

تهدي لعانة كاسه فرغانة
وتسيغ زبدة ما شداه زبيد

فغرار سيفك للاحابش محبس
ومثار نقعك للصعيد صعيد

لاتعدمن هذا المقلد أمّه
ملقى إليه لرعيها الاقليد

الورد قر والمسارح رحبة
والرفد مدّ والظلال مديد

والعيش أبلج مشرق القسمات وال
أشجار غر والاصائل غيد

والملك ممدود الرواق منوّر ال
آفاق وضاء المنى محسود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود
محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق
فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أخملـــت فيـــه كـــل تقـــى
وجـــه كصـــدر الحسـام تصبـولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق
ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق
ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى
تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق
جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق
فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق
مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق
شـــاومـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق
يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

بـــــــدائع تغبـــــــط السماء بها الأر
ض وتـــذكـــي الاشفـــاق في الشفـــق
في دولـــــة جمعـــت ايـــالتهـــا
مـــن بـــدداالحســـن كـــل مفترق
تـــذرّ أطـــواقهـــا على ملـــك
مكتفـــل رزق كـــل مـــرتـــزق
محمـــــودا سما وميسما ونـــــدى
واعتصـــب الـــدم كـــل مـــرتفـــق
طبـــق طـــوفـــانـــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــا مشـــف على غـــرق
يـــابحـــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكـــك هـــذا الـــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــدهـــر في طلـــق

- ٧٧٣٧ -

# ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها لكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا لاح شوارهما
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســـم لا يشيـــم حســـامـــه
والارض تحمـــل في الكفـــور كفـــورا

غســل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليـــوم ردّبـــه الســـواحـــل بـــورا

لم يبـــــــق بين الحولتين وآمـــــد
وتـــرا المضطغـــن ولا مـــوتـــورا

اخلى ديـــار الشرك مـــن أوثـــانها
حتـــى غـــدا ثـــالـــوثهـــن نكيرا

رفـــع القصـــور على نضـــائدهـــا مهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعـــل القصـــور قبـــورا

بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطـــاوتهوى في الصبـــاح نشـــورا

غـــادرت انطـــرســـوس كـــالطـــرس انمحـــى
رسما وحمر ردعهـــا يحمـــورا

وهـــي الـــزنـــاد لفتنـــة كـــانـــت على الــــ
ـــاسلام أحكـــم كسره اكسيرا

هتمـــت طـــرابلســـا فـــاصبـــح ثغـــرهـــا الــــ
ـــبسام مـــن عـــز الثغـــور ثغيرا

اقليـــدهـــاكـــانـــت وقـــد انطيتـــه
واســـأل بـــه ممـــن دهتـــه خبيرا

إن الاولى امنـــوا وقـــاعـــك بعـــدهـــا
غـــرّوا وقـــد ركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا

الـــق العصـــا فيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــم ودمـــر أرضهـــم تـــدميرا

لا يلههـــم إن قـــد مننـــت وشنهـــا
شعـــواء تصلي الكـــافـــريـــن سعيرا

بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســـف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريــك لامعــة التريــك بســاحــة الـــ
ـــــــــــأقصى مطهــــــــــرة لها تطهيرا
أولســـت مـــن قـــوم إذا هـــزوا القنـــا
فتلـــوا معــــاصمهـــم لها تســـويـــرا
وإذا هـــم خطبـــوا اليراع عـــزيـــزة
ســـاقـــوا الشفـــار على المهـــار مهـــورا
القـــى قسيا هـــم إليـــك أزمـــة الـــ
ـــملك المطـــل على السهـــا تـــأثيرا
ضحكـــت لـــك الأيـــام واكتـــأب العـــدا
قلقـــا فجئـــت مبشرا ونـــذيـــرا
لاملـــك الاملـــك محمـــود الـــذي
تخذ الكتـــاب مظـــاهـــرا أو وزيـــرا
تمشي وراء حـــــدوده أحكـــامـــه
تـــأتمهـــن فيحكـــم التقـــديـــرا
يقظـــان ينشر عـــدلـــه في دولـــة
جـــاءت لمطـــوى السماح نشـــورا
خلـــف الخلائف قـــائما عنهـــم بما
عيـــوا بـــه ألـــوى الـــدّ غيـــورا
البر والمعصـــوم والمهـــدي والـــ
ـــمأمون والسفـــاح والمنصـــورا
بشروابـــه فعهـــودهـــم وعهـــادهـــم
يمتحـــن تحت لـــوائه منشـــورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـــد مـــا ادّعـــت ثـــراك هضـــابـــه
وتثقفتـــك شعـــوبـــه وشعـــابـــه
ملـــك تكنـــف ديـــن أحمد كنـــه
فـــأضـــاء نيره وصـــاب شهـــابـــه

فـــالعـــدل حيـــث تصرفـــت احكـــامـــه
والأمـــــن حيـــــث تصرمـــــت أسرابـــــه
متهلـــــــــــل والموت في نبراتـــــــــــه
يـــرجـــى ويـــرهـــب خـــوفـــه وعقـــابـــه
عقـــد اللـــواء وســـار يقـــدمـــه ومـــا
حلـــت عقـــود تميمهـــا أتـــرابـــه
أســـد فـــرائســـه الفـــوارس والظبـــا
أظفـــاره والسمهـــريـــة غـــابـــه
طبـــع الحديـــد فكـــان منـــه جنـــانـــه
وسنـــانـــه وإهـــابـــه وثيـــابـــه
ويهش إن كبـــت الـــوجـــوه كـــأنما
أعـــداؤه تحت الـــوغـــى احبـــابـــه
نشرت بمحمـــــــــود شريعـــــــة أحمد
وأرى الصحـــابـــة مـــا احتـــذاه صحـــابـــه
مـــاغـــاب اصلـــع هـــاشـــم فيهـــا ولا الـــ
ـــفاروق بـــاء بخطبـــه خطـــابـــه
أبنـــاء قيلـــة قـــائمـــون بنصره
إن اجلبـــت مـــن قـــاســـط أحـــزابـــه
صبحـــوا محلقـــة البرنـــس بحـــالـــق
حـــرش الضبـــاب مـــن القلـــوب ضبـــابـــه
مـــازال يغلـــب مـــن بغـــاه ضـــلالـــه
حتـــى اتيـــح مـــن الهدى غـــلابـــه
ملقـــى بـــوحـــش الاصرمين تـــزيلـــت
آراؤه وتـــــزايلـــت آلابـــــه
دون الأرنـــط سخـــت بـــه نجـــداتـــه
ونجـــاده وقـــرابـــه وقـــرابـــه
سلبتـــه درّة تـــاجـــه يـــد ضيغـــم
لم تنجـــه مـــن بـــأســـه اسلابـــه

واتتـــه تجلـــب جـــوسلين جنـــائب
هبـــت فقـــلّ إلى القتـــال هبـــابـــه
اسرتـــــه لا منعـــــت سراه وغـــــره
بـــالقـــاع إن رام الـــورود سرابـــه
يمشي فتسمعـــه قعـــاقـــع قيـــده
هـــزجـــاً تقـــيء دمـــاًلـــه أنـــدابـــه
لا تـــل بـــاشره ولا كيســـونـــه
صـــدّت منـــى عنـــه ولا عنتـــابـــه
ضمنـــت شقـــاوتـــه سعـــادة صـــافـــح
غطـــى على أعنـــاتـــه اعتـــابـــه
مـــا زال يغـــدر ثـــم يعـــذر قـــادرا
حتـــى أتـــاه بجـــامـــح أصحـــابـــه
قصر الأمـــاني إن يمـــلأ عصرك الـــ
ـــاسلام مضروبـــا عليـــه حجـــابـــه
مجر يجرّ إلى الغنـــــائم قبـــــه
وحمى يـــزار على الفتـــوح قبـــابـــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقـــد أوطـــأت ديـــن اللّـــه عـــزا
أديـــم الشعـــريين لـــه رغـــام
دعـــاك وقـــد تنـــاوشـــت الـــرزايـــا
لـــه اهـــب يـــوزعهـــا العـــذام
فقمـــت بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قيـــام ذم مـــا اقترفـــت فئـــام
جـــذبـــت بضبعـــه مـــن قعـــر يـــم
لـــه مـــن فـــوق مقسمـــه التطـــام
وملـــت على معـــاقلهـــم فخّـــرت
ولاء مثـــل مـــا انتقـــض النظـــام

بصرخد والخطيم وفي عزاز
وقائع هز مشهدها الانام
ولو لم يعترف ويشم لأمسى
وأصبح لاعراق ولا شآم
صبيت على الصليب صليب بأس
قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا
على الاشراك أمقره العرام
لقوك كأنّ ما سلوه شيح
وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس وبكفر لاثا
ذممت وأنت للجليّ ذمام
صدمتهم بأرعن مرجحنّ
كأن مطاراً أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها
لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل
تعفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حدّ
حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه
فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير ما يرجوه راج
وأنفع ما يبلّ به أوام

# فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تـــوالـــت الأعيـــاد لازلـــت لها
تبلي ديـــابيـــج البقـــاء وتجد

الفطـــر والميـــلاد والمولـــود لـــو
قـــابلـــه بـــدر التمام لسجـــد

ثـــلاثـــة تعـــرب عـــن ثـــلاثـــة
لمثلهـــا يـــذكـــر حمدا مـــن حمد

فتـــح مبين وطـــلاب مـــدرك
ودولـــة مـــا تنتهـــي إلى أمـــد

وله من أخرى يقول:

وجئـــت بـــأحمد فمـــلأت حمدا
مـــوارد كـــان معـــذبها عـــذابـــا

تهلـــل وجـــه ملكـــك يـــوم أهـــدت
قـــوابلـــه لـــك الملـــك اللبـــابـــا

شبيهـــك لا يغـــادر منـــك شيئـــا
سنـــا وحيـــا وبـــذلا واستـــلابـــا

قسيـــم الحمـــد الا انّ حـــرفـــا
مـــن اسمـــك زاد للمعنـــى منـــابـــا

ألا للّـــه يـــوم فـــرّ عنـــه
وركـــب نـــص بـــالبشرى الـــركـــابـــا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفـذ إلى ولده سيف الدين محمد النـائب فيه بإعداد ما يحتـاج إليه ويلقـى مجير الديـن بما يجب له، فخـرج في أصحابـه ومعه المفاتيـح وأخلى الحصن مـن الرجال ودخـل إليه في خـواصه وسرّ بـذلك وتعجب مـن فعل مجاهـد الدين وشكـره على ذلك، وعـاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عـدّة أيام إلى أن استقرّ الصلـح والدخـول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبـو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفـن في مقابر الكهف، وكـان فيه أدب وافر وكتابـة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قـال ابن الأثير: وفيهـا توفي السلطـان مسعـود بن محمـد بن ملكشـاه بهمـذان، وعهد إلى ابـن أخيـه ملكشاه بـن السلطـان محمـود بن محمـد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالـب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خـاص بك بن بلنكـري، فقام بـأمر ملكشاه ولم يمهلـه غير قليل حتى قبض عليه، وكتـب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهـو بخوزستان يستدعيه إليـه ليخطب له بالسلطنـة، وكان غرض خاص بـك أن يقبض عليـه أيضا فيخلـو وجهـه مـن منازع مـن السلجـوقيـة، وحينئذ يطلـب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابـه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمـع به وخـدمه خـاص بك خـدمة عظيمـة، فلما كان الغـد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسـه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبـل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطـروحا حتى أكلته الكلاب، وكـان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطـان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سـائر الامراء واستـولى على أكثر البـلاد، وهو كـان السبب في أكثـر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكـابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الافصاح أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول اللّه صلى اللّه وسلم على رعل وذكوان شهراً فابتدأ هو والخليفة سرا كل واحد في موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرّ الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوماً ولاينقص يوما، ووصل القصاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال اللّه يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لاأدل على وجود موجود أعظم من أن يدعى فيجيب.

## ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه وهجموا البلد وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى ناحية مصر وغيرها، وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العدد الحربية والاموال والميرة والغلال ما لايحصر فيذكر، ولما شاع هذا الخبر في الأقطار ساء سماعه، وضاقت الصدور وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لايردّ نافذ قضائه، ولايدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه.

## فصل

قال: وعرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين أخويه عز الدولة وزين الدولة مشاحنات ومشاجرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الدين إلى الرئيس يستدعيه للاصلاح بينهم في القلعة فامتنع من ذلك وجلس في داره، وهمّ بالتحصن عنه بأحداث البلد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الدين بزان واليه، بعد أن قرر له بقاء داره وبستانه وما يخصه ويخص أصحابه، وتقلد أخوه زين الدولة مكانه وأمر ونهى ونفذ الاشغال على عادته في العجز والتقصير وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليها عطاء الخادم واستصحابه معه إلى دمشق لينوب عنه في تدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فاستوحش من عوده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانه في نفسه، فوعد بالإجابة ، فعاد إلى داره بدمشق، ثم هجس في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيـــا سيفـــا أعـــز الـــديـــن منـــه الـــ
ــــــغرار العضـــب والنـــوم الغـــرار
مـــلأت جـــوانـــح الاقطـــار رجفـــا
كـــأن الأرض خـــامـــرهـــا دوار
عـــلاك حلى على الـــدنيـــا فتـــاج
بمفـــرقهـــا وفي يـــدهـــا ســـوار
أضـــاءت شمـــس عـــدلـــك في دجـــاهـــا
فكـــل زمـــان ســـاكنهـــا نهار
فتحـــرق مـــن عصـــاك وأنـــت مـــاء
وتغـــرق مـــن رجـــاك وأنـــت نـــار
الا للّـــه وجهـــك والمنـــايـــا
مكلحـــــة وللبيـــــض افترار
هتكـــت حجـــابـــه والنصر غيـــب
وللهبـــوات طـــيّ وانتشـــار
بطعـــن للقلـــوب بـــه انتظـــام
وضرب للـــرؤوس بـــه انتشـــار
تبـــادره كـــأن الموت غنـــم
ومـــا مـــن عـــادة البـــدر البـــدار
أنخـــت على الصليـــب مطـــا صليبـــا
بـــه مـــن صـــك مبركـــه هـــدار
بمشرفـــه المنـــاكـــب مقـــربـــات
لهن بمتـــن كـــل وغـــى حصـــار
جنين بـــإنـــب أنـــب العنـــاصي (٦٨)
وإضـــن وللقنـــا منهـــا ثمار
وفي هـــاب أبـــت بها فجـــاءت
كما أجلى مـــن الكســـم الصـــوار (٦٩)
وكـــم في فـــج حـــارم مـــن حـــريـــم
عفتـــه فـــلا جـــديـــر ولا جـــدار

وانطاكية استنت إليها
فأجفل خيطها وله عرار (٧٠)
وصبح في عزاز بها عزاز
فأمسى وهو وعث أو خبار (٧١)
يشق بها دجى الغمرات عسفا
جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى:

وما يوم الفرنجة منك فذ
فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا
بعيد الغور ملتطم العباب
وأحكم بالخطيم لهم خطاما
أمر بريمه مرّ الضراب
مشو متساندين إلى صليب
يبرقع هبوة الصنم الصلاب
تلفهم المنايا في الثنايا
وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشت سهم كبشهم هناة
فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا
مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى
وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف معوق
واصعد وهي غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض
ثناه مناه عن رجع الجواب

بعيـــداً مـــن قـــراع واقتراع
يـــؤوب لـــه إلى يـــوم المآب

وكـــم ســـوط بخيلـــك اقبلـــوه الصـــ
ـــدور فكـــان ســـوطـــا مـــن عـــذاب

تـــركتهـــم بـــأرض الشـــام شـــامـــا
لظفـــر تتقيـــه أولنـــاب

هتكـــت حجـــابهم والشمـــس وسنـــى
بشمـــس لاتـــوارى بـــالحجـــاب

بـــأبيـــض مـــن حبيـــك الهنـــد صـــاف
مصـــون المتـــن مبتـــذل الـــذبـــاب

لـــه سمـــة الشيـــوخ صفـــاء شيـــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب

الايـــانـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها (٧٢) خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــا
على عـــز التملـــق والخلاب

فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب

تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي

صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب

فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــا
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي

تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّ لها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفـــر العـــزم ممـــدود الـــرواق على
معـــالم الـــديـــن يـــر فيهـــا ويبنيهـــا
ردّ الكنـــائس كنســـا للهـــدى فخبـــت
نـــار الضـــلال ووارتها أثـــا فيهـــا
وأورد العلـــم عـــدا مـــن ايـــالتـــه
فـــاستـــن وافتـــن عبـــا في صـــوافيهـــا
وبـــث للشرك اشراكـــا فما درجـــت
طـــريـــدة منـــه الا استـــوهقـــت فيهـــا
يـــابـــدر مـــذ أشرقـــت في الـــدســـت غـــرتـــه
غيـــث الـــرعيـــة واخضلـــت مـــراعيهـــا
أقـــام أحمد مـــن محمـــودهـــا علما
بـــه استقـــام على البيضـــاء ســـاريها
محيـــي شريعتـــه مـــن بعـــد مـــا انهدمـــت
واستعجمـــت بعـــد إفصـــاح معـــانيهـــا
شـــابـــت مـــواهبـــه فيهـــا مهـــابتـــه
حتـــى استقـــرت على سمـــت ســـواريها

وله من أخرى:

عـــزت سيـــوفـــك فـــالعـــراق عـــراقهـــا
والشـــام غير مـــدافعـــات شـــامهـــا
إن أغمـــدت حـــل العـــزائم حلهـــا
أو جـــردت حـــرم الكـــرى احـــرامهـــا
شجنـــت (٧٣) عـــداك بها فـــلا اشراقهـــا
بمفـــازة منهـــا ولا إعتـــامهـــا
سريـــت فصبحهـــا بها يقظـــاتها
هـــدأت فمستهـــا بها أحـــلامهـــا
كـــالماء إلا أن في رشفـــاتـــه
نـــاراً حشـــاشـــات النفـــوس ضرامهـــا

خفـــــت على أيمانكـــــم أوزانها
يــوم الــوغــى واستثقلتهــا هــامهــا
حتــى أحلــن الشــام شــامــا صرصرت
فيـــه جنــاد بها وصـــدّح هــامهــا
ورحضـــن أدران الجزيـــرة بعـــد مــا
غمـــرت بها وهـــداتها وآكـــامهــا
شطـــراً أبـــرت ومثلـــه أنظـــرتـــه
وقـــع الخطـــوب تكـــرهـــا أيـــامهــا
بــالخابطـــات الغـــاب تـــزأر أســـده
والمجفلي الحي اللقـــاح صيـــامهــا
أورتها أجمات أنطـــــــاكيـــــــة
عنقـــا وقـــد شبـــب الصـــدا اجمامهـــا
تلقـــى المشـــافـــر في مـــراشـــف كلما
بـــردت بها الأكبـــاد زادهيـــامهـــا
فغـــدت وقـــد عـــز السراح سراحهـــا
وتـــوزعـــت في كنسهـــا آرامهـــا
ومشـــى الضـــلال القهقرى واستـأصل الـــ
ـــاذان مـــن رجـــع الاذان صـــلامهـــا
وغـــدا يخللهـــا الخليـــل ســـواحبـــا
عـــذبـــا يمـــرّ لها العـــذاب غمامهـــا
غضبـــا لـــديـــن اللّـــه حـــص جنـاحـــه
بغيـــا وأدمـــى صفحتيـــه لـــدامهـــا
فـــالآن رد النـــور فيـــه نـــوره
وانجـــاب مـــن تلـــك الهنـــات ظـلامهـــا
محمـــــودا المحمـــــودا قـــــدامـــا إذا
خـــام الكماة وزلـــزلـــت اقـــدامهـــا
الفـــارج الكـــرب العظـــام تضـــاجمت
أشـــداقهـــا وفـــرى القلـــوب ضغـــامهـــا(٧٤)

ولـه مـن أخرى:

أمــا الـــرعــايــا فـــإنها رشفــت
لـــديــك نعمـــى عــذبــا ثنــايــاهــا
سلكـــت نهج العـــدل القـــويـــم بها
فـــاحمدت دينهــــا ودنيـــاهــــا
وكـــم اميتـــت خـــوفـــا فـــامنهـــا
متـــالـــف الخوف خـــوفـــك اللّـــه
للّــــه أقطـــارك التـــي قطـــرت
لها منـــاهـــا إلى منـــايـــاهـــا
أنـــب في إنـــب فـــوارسهـــا
تــــردي فتردي أولاك أخـــراهـــا
أشجـــت لهاة البرنــــس هبـــوتها
وكـــم عتـــا عـــاتيـــا فـــأشجـــاهـــا
وجـــوسلين استســـاغ نطفتهـــا
فـــاحتلـــب الـــذل تحت مغـــداهـــا
ردّتـــه صفـــرا مـــن كـــل مـــا ملكـــت
يــــداه أيــــد مـــاضـــل مسراهـــا
جـــويـــس جـــاستـــك أوجـــه لا رأت
بـــؤســـا وجـــاد الحيـــا محيـــاهـــا
في سريـــة لـــو تكـــون فـــارسهـــا
يـــومئـــذ مـــا انبعثـــت أشقـــاهـــا
لا زال ظـــل النعماء عـــن ملـــك
مـــا الشمـــس كفـــؤالـــه إذ ابـــاهـــا
واللّـــه جـــازيـــه عـــن مقيـــدة
أعـــزهـــا اللّـــه مـــذ تـــولاهـــا
محمـــــــودا المعتلي إلى فلـــــــك
الحمـــد وثيراً لـــه ولا يـــاهـــا
أعطـــاكـــه جـــدّك المتـــوج بالجـــ
ـــدّ ونفـــس للّـــه مغـــزاهـــا
نفـــس عـــزوف عـــن الخنـــا طبعـــت
نـــزههـــا اللّـــه يـــوم ســـوّاهـــا

أنت الذي سلم الانام له
يمنى طباق العلى ويسراها

وأنت مولى الملوك قاطبة
من كل فنا خسرو وشاهنشاها

والشهر هذا لا اقول أحمده
أوّه بديل من قولتي واها

وله من أخرى:

يا ابن الذي لم يال في نجدة الـ
ـإسلام ادلاجا وتهجيرا

تكنف الشام وقد شام بر
ق الخوف انجادا وتغويرا

وكف كلب الروم من بعد أن
انشب نابا واظفورا

فاهله رقك إن انصفوا
رقا بحدّ السيف مسطورا

بدر هوى واستخلف الشمس في
دستك اشراقا وتأثيرا

وله من أخرى:

ملك كسى الاسلام من ذبه
بردا بتدبيح الظبى معلما

من أصبح الشام به شامة
يقطر من قتل عداه دما

لو لم يقم منصلتا دونه
لم تلق في أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الــدهـــر مـــارضتـــه بـــالجودوالبـــاس
مقســـــم بين اغـــــراس واعــــراس

فتــــح تعـــافيــــه فتــــح ومطلـــب
دانـــى المنـــال وملـــك ثـــابـــت راسي

نصرابصرى وصفحـــاعــــن حماةلقـــد
أحسنـــــت للــــــداء حسما أيها الآسي

يـــابـــن الـــذي عنــت الـــدنيـــا الـــدولتــه
مـــن فـــاطمـــي اعـــزتـــه وعبـــاسي

وله فيه أيضا:

غـدا الـــديـــن بـــاسمـــك ســـامـــي العلـــم
أمين العماد مكين القــــــــــــــــــدم

لـــــذلـــــك لقبـــت نـــورالــــه
وقـــد أغطـــش الظلـــم فيـــه الظلـــم

أضــــاءت بعــــدلـــك آفــــاقــــه
وفضـــت عـــرى الـــديـــن لما ادهـــم

ولم تمش رهـــــوالنصر الـــــرهــــا
ومثلـــــــك أدرك لما عــــــــزم

ويـــوم بســـوطـــا بسطـــت الحما
م على الهضـــب مـــن ركنهـــا فـــا نهدم

وبصرى وصرخـــــد لـــــو لم تثـــــر
دراكـــا الكـــانـــا رديفـــي ارم

ومـــذ فـــض جيشــــك في الغوطتـــــ
ـــين فـــض الصليـــب لـــه مـــانظـــم

وفي كفـــر لاثـــاوهـــاب حللـــــ
ـــت عقـــد البرنـــس ببيـــض خـــذم

معـــــــــودة أنها لاتســــــــــ
ـــــلّ الامقمقمـــــة للقمـــــم

يـــــوم بسرفــــــود جـــــرّ عتهــــم
أجــــا جــــا أغصهــــم واصطلــــم

وفـــوق العـــــريمــــة غشــــاهــــم
عــــرام جيــــوشــــك سيــــل العــــرم

وأبــــــت بكلبهــــــم في الكبــــــو
ل مبـــــاح الحريــــم مـــــذال الحرم

وبـــــــارتهم أذنـــــــــت انها
ابــــــارتهم فلييــــــــؤ بـــــذم

بنــــــوهــــــا واعلــــوا ولم يعلمــــوا
بما خــــط في اللـــــوح منـــك القلــــم

وانــــك خــــارم مــــا أحكمـــو
ه ومــــن ديننــــا راقــــع مــــا انخــــرم

تــــرفــــع مــــن بعــــد خفــــض هــــدى
وتخفــــض مــــن بعــــد رفــــع صنــــم

سمكــــــت المدارس فـــــوق النجــــو
م فكــــم منجــــم تحتهــــا قــــد نجــــم

وعــــــاش الحنيفــــــــي والشافــــــــ
ــعي بما شــدّت منهــا وكــانــا رمــم

وإن لم تكــــن هــــاشمــــي الأصــــو
ل فــــانــــك فــــرع الهزبــــر الهشــــم

ومــــن يــــدّعــــى في العلى مــــا ادّعيــــ
ــت وأنــــت ابــــن مــــن عــــز لما احتكــــم

واقســــم مــــا غــــاب ميــــت سقــــت
مغــــارســــه عين هــــذي الشيــــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

- ٧٧٦٠ -

## ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابـن الأثير: ففيها ملك نـور الدين دمشق، وأخـذها من صـاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكـان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنـج ملكوا في السنة الخالية عسقـلان، وهي مدينـة فلسطين حسنا وحصـانـة، ولما كـانـوا يحصرونها كان نـور الـديـن يتلهـف ولايقـدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طـريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الـدين وتـابعو الغـارة على أعمالها، وأكثـروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمـر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنـج على أهل المدينة قطيعة كـل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيهـا من أهل البلد، ثم أشتد البـلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضـوا عبيدهم وإماءهـم الذين نهبـوا من سائر بـلاد النصرانية وخيروهم بين المقـام عند مواليهـم والعود إلى أوطانهم، فمـن أحب المقام تـركوه، ومن أحـب وطنه سـار إليه، وزالـت طاعـة مجير الـدين عـن أهل البلـد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مـؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكـذا خاف أهلهـا وأشفقوا من العـدّو فلجأوا إلى اللـه تعالى ودعوه أن يكشف مـا بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خـلاصهم مما هـم فيه، على يد أحـب عباده إليـه وأحسنهم طريقـة، وأمثلهم سيرة، وهو الملـك العادل حقا، نـور الدين محمـود، فحسن له السعـي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلـك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقـوّة والحصار تعذر عليـه لأن صاحبه متـى رأى شيئاً من ذلـك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلـت: وقد كـان سبق لـه بـذلك سـوابـق قد تقـدّم ذكر شيء منهـا، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظـــن صـــلاح الـــديـــن فـــرســـان جلـــق
كفـــرســـانـــه ومـــا الاســـد مثـــل الثعـــالـــب
رجـــال إذا قـــام الصليـــب تصلبـــت
رمـــاحهـــم في كـــل مـــاش وراكـــب
غـــدا يطلـــع الشـــام الفـــرنـــج بفيلـــق
مسعـــودة أبطـــالـــه للمصـــائب
لها الليـــل نقـــع والأسنـــة أنجـــم
فما غير أبطـــال وغير جنـــائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأولين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشـــق في دمشـــق رجـــال سلـــم
لحور نســـائهـــم منهـــم نســـاء

هـــي الفـــردوس أصبـــح هـــو عـــاف
مـــن العـــافي ومـــن خـــال خـــلاء

جنـــان تعـــرف الجنـــات فيهـــا
ولا رأي هنـــــــــــاك ولا رواء

لا سمـــح صعبهـــا ودنـــت قصـــاهـــا
وامكنـــك إقتيـــاد وامتطـــاء

ويـــا نعـــم العطـــاء عطـــاء رب
تـــوسطـــه فـــأنشطـــه عطـــاء

تفـــاءل بـــاسمـــه فـــالفـــال وعـــد
يكـــون على ظبـــاك بـــه الـــوفـــاء

هـــو السبـــب الـــذي شـــزرت قـــواه
وهـــذ بـــه لخدمتـــك الصفـــاء

وسيـــف إن تشمـــه تشـــم حســـامـــا
وإن يغمـــد فنـــار بـــل ذكـــاء

جنتـــه لـــك السعـــادة قطـــف رأي
لنقـــب الخادعيـــك بـــه هنـــاء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من إلباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الدين شيركوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستبحاش منه واهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتحرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفرعن سداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات، ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبار من الغوطة ، وزحف إلى البلد من شرقيه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثيرووقع الطراد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوما بعد يوم ، وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلي البلد وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر ، غير نفر يسير لايؤبه لهم، فتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلا فصعد فيه، وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وأطلعوا علما نصبوه على السور وصاحوا:نور الدين يامنصور، وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه، وفتحه فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح باب توما، أيضا ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسرّ كافة الناس من الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الاسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار،وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه فأومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ووعده الجميل،ودخل نور الدين القلعة في اليوم المقدّم ذكره وأمر بالمناداة بالامان للرعية والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل

البلد بها طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه ونصرةأعلامه.

وقال ابن الاثير:لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلـوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهـو من أكابر أمـراء نور الدين واقطـاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليهـا وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الـدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصـل الرئيس مؤيد الديـن المسيب إلى دمشق مع ولده النـائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومهـا وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبـدا منه من الأسباب المعـربة عن إضمار الفساد، والعـدول إلى خلاف منـاهج السـداد والرشـاد ما كـان داعيا إلى فساد النية فيـه، وكان في إحدى رجليه فتـح قد طال به ونسيـه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضـى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفـن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبـار بقتل خليفـة مصر الملقب بالظـافر بـن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقـامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبـوه بالفائز ، وعباس الوزيـر، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طـلائع بن رزيك ، وهو من أكـابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكوريـن لما انتهى إليه الخبر وهو غـائب عن مصر قلق لذلـك وامتعض وجمع واحتشد، وقصـد العود إلى مصر، فلما عـرف عـباس بما جمع خـاف الغلبـة فتـأهـب للهـرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيـأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خـرج إليه جماعة من خيالـة الأفرنج فاغتر بكثـرة من معه، وقلة مـن قصده، فلماحملوا عليـه فشل أصحابـه وأعانوا عليـه وانهزم أقبح هزيمـة هو وابنـه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتـل العادل بـن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمني من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينـة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهـي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسـدّ ذلك الثغر مثلك وأكثـر من الوعـد وذكر رغبته في قـربه ورعايتـه وما بينه وبينـه من قديم الصحبـة، فاستأذن أسامة في ذلـك الملك العادل نور الـدين، وكان في خدمته فقـال: يافلان ما تسـاوي الحياة الشتات والرجـوع إلى الأخطار والبعـد عن الأوطـان، ومنعـه من ذلـك بإحسـانـه ووعده أن يستخلـص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكـاتبات وأشعـار متصـلات إلى أن سيرهـم وهم نيـف وخمسـون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهـل القصور والأمـراء أنكروا تسييرهـم وقالـوا: يكون أهلـه رهائن عندنا لنأمن ما يكون منـه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكـر النـوري بحلـب فـأخبره أن من كـان لـه بمصر مـن الأهـل والأولاد والأصحاب وصلـوا، وأن المركب انكسرت بهم في سـاحل عكـا، ونهب الفرنج كـل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بـأنفسهم، وأن متملك الافرنـج أعطاهـم خمسمائة دينار أصلحـوا منها حـالهم، وأكتروا ظهـراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّـه أشكـو فـرقـة دميـت لها
جفـوني وإذكـت بـالهمـوم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفـس بـالمنـى
وطـارت بها الاشـواق كـل مطير
فلما قضـى اللّـه اللقـاء تعـرضـت
مسـاءة دهـري في طـريـق سروري(٧٦)

## فصل

قال أبـو يعلى: وفي آخر ربيـع الأوّل وصل الأمير مجد الـدين أبـو بكر

محمد نـائب نور الدين في حلـب إلى دمشق عقيب عوده مـن الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الـدين هذا هـو ابن الدايـة، وكان نور الـدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخـوته وسيتكرر ذكرهـم في هذا الكتـاب، ومجد الديـن أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعـوا مـا مضـى مـن قبـل هـذا المابعـد
فـأقسم لـولا المجـد مـا عـرف المجـد
كـريـم سمـت أوصـافـه لعفـاتـه
قـرائن كـل اثنين بينهما عقـد
محيـاه والبشرى ويمنـاه والنـدى
ونجـواه والـدنيـا وتقـواه والـزهـد
ففـي قـربـه الـزلفـى وفي وعـده الغنـى
وفي نيلـه الحسنـى وفي رأيـه الـرشـد
إذا وجـه نـور الـديـن قـابـل مجده
فقـل في كمال البـدر قـابلـه السعـد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قـاسم بن هـاشم، وهو الذي أرسـل عمارة اليمني الفقيه الشـاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبـو يعلى: وفي ثامن مـن جمادى الأولى ورد الخبر من نـاحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنـج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلـة من أهلهـا، فهجمت عليهـا وقتلـت وأسرت وسبت ونهبـت، وعادت بالغنـائم بعد ثلاثة أيام وتـركتها صفراً، وبعد ذلك عـاد من كان هرب منهـا في البحر بعد الحادثـة، ومن سلـم واختفى وضاقـت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

# ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين،فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكيةبدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشام إني لكم ناصح في مقالي
وإياكم وسمي النبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النساء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاد يمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرّمة باب ساج جديدا، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمير

- ٧٧٧٧ -

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

# ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

ما فوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد

همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد

أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد

قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى للآثر الاسناد

زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها مياد

أحيـــا ربيـــع العـــدل ميـــت ربـــوعهـــا
فـــالبرض نســـج والهشيـــم مـــراد
فـــالعيـــش إلا في جنـــابـــك ميتـــة
والنـــــوم إلا في حماك سهــــــــاد
وإذا العـــدى زرعـــوا النفـــاق واحصـــدوا
كيـــدا فعـــزمـــك نـــاقـــض حصـــاد
بـــا لمقـــربـــات كـــأن فـــوق متـــونها
جـــن الملا وكـــــأنها أطـــــواد
تـــدأى ومـــن وحـــي الكماة صفـــورهـــا
فـــالـــزجـــر قيـــد والنـــدى قيـــاد
سحـــب إذا سحبـــت بـــأرض ذيلهـــا
فـــالحزن سهـــل والهضـــاب وهـــاد
يهدي النـــواظـــر في دجنـــة نقعهـــا
بـــنـــدر بسرجـــــك نير وقـــــاد
ألبســـت ديـــن محمـــد يـــا نـــوره
عـــزّالـــه فـــوق السُهـــا إسعـــاد
مـــازلـــت تسمكـــه بميـــاد القنـــا
حتـــى تثقـــف عـــوده الميـــاد
لم يبـــق مـــذ أرهفـــت عـــزمـــك دونـــه
عـــدد يـــراع بـــه ولا استعـــداد
إن المنـــابـــر لـــو تطيـــق تكلما
حمدتـــك عـــن خطبـــائهـــا الاعـــواد
ولئـــن حمت منـــك الأعـــادي مهلـــة
فلهـــم إلى المرعـــى الـــوبيّ معـــاد
ولكـــم لكـــم في أرضهـــم مـــن مشهـــد
قـــامـــت بـــه لظبـــاكـــم الاشهـــاد

ملـــق بـــأطـــراف الفـــرنجـــة كلكـــلا
طـــرفـــاه ضرب صـــادق وجـــلاد

حـــامـــوا فلما عـــاينـــوا حـــوض الـــردى
حـــامـــوا بـــرائش كيـــدهـــم أو كـــادوا
ورجـــا البرنـــس وقـــد تبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــا بحـــارم والمصـــاد مصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــد حـــداد
وســـواعـــد ضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــة أحمد الاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــا بغـــداد
يـــا مـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــد الشمـــس كـــاسفـــة السنـــا
نـــار لها ذاك الشهـــاب زنـــاد
لا ينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــد خـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
للملـــك مـــا تشـــاء مـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيـــت مـــن المعـــالي بـــا لمعـــاني
ولاذ النـــاس بعـــدك بـــالاســـامـــي
عــنــزيــز المنتمــى عــالي المراقـــي
بعيـــد المرتمى غـــالي المســـامـــي
فما أحـــد إلى العليـــاء يـــدلي
بمحتـــدك القسيمـــي القســـامـــي
أبـــوك المعتلي قمـــم الأعـــادي
إذا استعـــرت مـــذامـــرة القمام
زكـــا عـــرق العـــراق وقـــد تكنـــى
بـــه وأطـــال مـــن شمـــم الشـــآم
وجـــدك جـــدّ حتـــى قـــال قـــوم
على الفلـــك ابتنـــى عمـــد الخيـــام
فخـــرت ففـــت أبـــاء عظـــامـــا
إذا فخـــر المنـــافـــر بـــالعظـــام
وقفنـــا والنـــواظـــر مسجـــدات
وروح العـــــز ذاريّ الختـــــام
أســـاطـــر كـــالـــزبـــور مفصـــلات
كـــأنـــا مـــن صـــلاة في نظـــام
لـــدي ملـــك سجـــايـــاه سجـــال
تعـــاقـــب بين عفـــو وانتقـــام
كـــريـــم أكثـــرت يـــده أيـــادي الـــ
ـــعفاة وقللـــت عـــدد الكـــرام
فـــأهللنـــا الســـالفتـــي هـــلال
وكفـــرنـــا الضـــاحكتـــي حســـام
ذهلنـــــا والسماط تخال سمطـــــا
وقـــد سجـــد المقـــاول للســـلام
هـــل الـــدســـت استقـــل بليـــث غـــاب
أم الفلـــك ارتـــدى بـــدر التمام

يطرب به إلى العلياء نفس
غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام
إذا طرب الملوك إلى المدام
سقى اللّه العوامل من جبان
شققن النقع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم
بها وحسمت من داء عقام
بإنب والرعال كأن ثولا
تطاوح تحت عير من أيام
مقام كنت قطب رحاه أرجى
مقام بين زمزم والمقام
رميتهم بأرعن مرجحنّ
ابارهم وكنت أبرّ رام
وقمت وقد تناعس كل راع
وقام وقد تقاعس كل حام
فأيدي الخيل تذرع بحر لج
من الدم من يد التثخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما
عزيز القوم معتدل القوام
وفي شجراء حارم شاجرتهم
سواهم كالسهام بكا السهام
نظائر حممت لهم حماما
تطاير تحته مثل الحمام
فلو قد مثل الاسلام شخصا
لرشف ما وطئت من السلام
فاكذب مدّعين هفوا وغرّوا
بأن الأرض تخلو من همام

أولى لابصـــاركـــم هــــذا التعـــاشي
عـــن النـــور المبين بـــل التعـــامـــي

عـــن القمـــر الـــذي يجلـــوه ظـــل الـــ
ـــعواصم في ضيـــا الليـــل التهـــامـــي

هـــو المهـــدي لامـــن ضـــل فيـــه
كثير واستخـــف ســـوى هشـــام

وقـــائم عصرنـــا لامـــا تمنـــى
بـــه مـــن صـــوغ أضغـــاث المنـــام

بنـــور الـــدين أنشر كـــل حـــق
أطيـــل ثـــواؤه تحت الـــرجـــام

وطـــالـــت قبـــة الاســـلامـــم حتـــى اســـ
ـــتوت بين الفـــوارس والنعـــام

تطـــابـــق لاسمـــه لفـــظ ومعنـــى
أحـــلاه الطبـــاق علـــى الأنـــام

جـــرى قـــدّامـــه ابـــن سبكتكيـــن
وقبـــل الـــوبـــل هينمـــة الـــرهـــام

وكـــان مـــن النجـــوم بحيـــث تـــومـــى
إليـــه مـــن عنـــايـــات التكـــامـــي

وجئـــت فصـــار أشمـــخ مـــا بنـــاه
لما شيـــدت الطـــأمـــن رغـــام

أطـــاعـــك إذ أطعـــت اللّـــه جـــدّ
ركبـــت بـــه الـــزمـــان بـــلا زمـــام

ألا يـــاربها اتفـــق الاســـامـــي
وفـــاضـــل بينهـــا درج التســـامـــي

جنـــى شرفـــا مـــن استغـــواه حتـــف
إليـــك وكـــم حيـــاة مـــن حمام

تـــرشفـــك الكماة وأنـــت مـــوت
كـــانـــك مـــن طعـــان في طعـــام

# فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها
مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة
كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا
قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما
أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون إلكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قـال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشريـن مـن ربيع الأوّل وافـت زلزلـة هائلـة، وجاءت قبلهـا وبعدها مثلهـا في النهار، وفي الليـل ثم جـاء بعد ذلـك ثـلاث دونهنّ بحيـث أحصين سـت مـرات، وفي ليلـة الخامـس والعشريـن منه جـاءت زلزلـة ارتـاع الناس منهـا في أوّل النهار وآخـره، وتواصلـت الأخبار من ناحيـة حلب وحماه بانهدام مـواضع كثيرة وانهدام برج من أبـراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكـر أن الذي أحصي عدده منها تقـدير الأربعين، ومـا عرف مثـل ذلك في السنين الماضيـة والأعصار الخالية، وفي التـاسع والعشرين مـن الشهر بعينه وافـت زلزلة آخـر النهار وبالليل ثـانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلـزلة مروعة وثانيـة وثالثة، وفي ثـالث رمضـان ثـلاث زلازل، وأخرى وقـت الظهـر، وأخـرى هائلـة أيقظت النيام وروّعـت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلـة نصف رمضان زلزلة هـائلة أعظم مما سبـق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلـة التي تلتها زلـزلتان أوّلها وآخـرهـا، وفي اليـوم الذي بعـد يـومهـا، وفي ليلة الثـالـث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلـزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسـادس عشره، ، وفي اليوم الـذي جـاء بعـده أربع زلازل، وليلـة الثـاني والعشرين منـه، ودفع اللّه تعـالى عن دمشق وضـواحيها ما خـاف أهلها من تـوالي ذلك وتتابعـه برأفته بهم ورحمتـه لهم، فله الحمد والشكـر، لكن وردت الأخبار مـن ناحية حلـب بكثرة ذلـك فيها وانهدام مساكنهـا، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكـانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفـر طاب فهـرب أهلها منها خـوفاً على أرواحهـم، وأمّا حماه فكانـت كذلك، وأمّا بـاقي الأعمال الشاميـة فما عرف ما حدث فيهـا من هذه القدرة الباهرة ، واللّه أعلم.

## ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفـر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولاً، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا، ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء
وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ماقضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطه وبلاء
جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الـرابع والعشريـن من رمضـان وافت دمشـق زلزلـة عظيمة روعت الناس وأزعجتهـم لما وقع في نفوسهم مما قد جـرى على بلاد الشام من تتابـع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من نـاحية حلبْ بأنّ هذه الـزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت مـن دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمـت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أيـاما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة مـن الرجفات الهائلـة يتبعهـا صيحات مختلفـات تـوفي على أصـوات الـرعود القـاصفـة المزعجة، فسبحان من لـه الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متـوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر مـن شوال، وافت زلزلة هائلة بعـد صلاة العشـاء، الآخـرة، أزعجـت وأقلقت، وتـلاهـا في إثـرها، هـزة خفيفـة، وكذا في ليلـة العاشر مـن ذي القعدة وفي غـدها زلازل ، وليلـة الثالـث والعشرين والخامـس والعشرين منـه أيضا زلازل نفـرالناس مـن هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والـدعاء والتضرع إلى اللـه تعـالى، وفي يـوم الجمعة انسـلاخ ذي القعـدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنـة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلـة شديدة ذات رجفات عظيمـة متتابعـة أخربـت البلاد وأهلكـت العباد، وكـان أشدهـا بمدينـة حماه وحصن شيزر فـإنهما خربا بـالمرّة، وكذا ما جـاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقـرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الـدين جمع وحفـظ البلاد، وإلاّ كـان دخلها الأفـرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغنـي من كثرة الهلكى أنّ بعـض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتـب لمهمّ فجاءت الـزلزلة فأخـربت الدور، وسقـط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين أحلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من ناما[٧٧]

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت وإذا لا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
أرض بالغافلين كي يستفيقوا[٧٨]

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعـوّضـوا مـن مشيـدات المنـازل بـالـ
ـلاكواخ فهـي قبـور سقفهـا خشـب

كـأنها سفـن قـد أقبلـت وهـم
فيهـا فـلا ملجـأ منهـا ولا هـرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

مـا استـدرج الموت قـومـي في هـلاكهـم
ولا تخرمهـم مثنـى ووحـدانـا

فكنـت اصبر عنهـم صبر محتسـب
وأحمد الخطـب فيهـم عـز أو هـانـا

واقتـدي بـالـورى قبلي فكـم فقـدوا
أخـا وكـم فـارقـوا أهـلا وجيرانـا

لكـن سقـب المنـايـا وسـط جمعهـم
رغـا فخـروا على الاذقـان اذعـانـا

وفـاجـأتهم مـن الأيـام قـارعـة
سقتهـم بكـؤوس الموت ذيفـانـا

مـاتـوا جميعـا كرجـع الطـرف وانقـرضـوا
هـل مـا تـرى تـارك الحين إنسـانـا

اعـزز علـي بهم مـن معشر صبروا
على الحفيظـة إن ذو لـوثـة لانـا

لم يترك الـدهـر لي مـن بعـد فقـدهـم
قلبـا أجشمـه صبرا وسلـوانـا

فلـو رأوني لقـالـوا مـات أسعـدنـا
وعـاش للهـم والاحـزان اشقـانـا

لم يترك الموت منهـم مـن يخبرني
عنهـم فيـوضـح مـا قـالـوه تبيـانـا

بـادوا جميعـا ومـا شـادوا فـواعجبـا
للخطـب أهلـك عمارا وعمـرانـا

هـــذي قصـــورهـــم أمســـت قبـــورهـــم
كـــذاك كـــانـــوا بها مـــن قبـــل سكـــانـــا

ويـــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لا ألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلاّ كسير القلـــــب حيرانـــــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها الشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــــاواة وشنـــــأنـــــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لا يغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القـــريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لا يغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــــره الشـــــام أهلـــــه فهـــــو محقـــــو
ق بـــــأن لا يقيـــــم فيـــــه لبيـــــب

إن تجلـــت عنـــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــا زلازل وخطـــوب
رقصـــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكـــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانـــه إذا مـــالتـــ
ـــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لاهبـــوب لنـــائم مـــن أمـــانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــا ضـــاحـــك الســـ
ـــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكـــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ـــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فلـــلأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظـــن مثـــل سهـــام الـــ
ـــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الآن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ـــر وبـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكم نوائب مازا
لت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـ
ـاس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد
الدين واصبر فالحادثات ضروب

فكذاك القناة يكسر يوم الـ
ـروع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى
بلغ عبيدا كل ما أمله

بثقله لما تصاحبتما
سلمك اللّه من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر ، نسأل اللّه تعالى تمام العافية.

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابـع ربيع الآخر عقيـب نزول نور الـدين على بـانياس ومضايقتـه لها بالمنجنيقات والحرب، سقـط بدمشـق الطائر من العسكـر المنصور بظـاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعـرب، بأنّ الافرنج خـذلهم اللّه تعالى أنهضـوا سرّية من أعيان مقدّميهـم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سـوى أتباعهم لكبس المذكوريـن ظنا منهـم بأنهم في قـل، ولم يعلموا أنهم في ألـوف، فلما دنوا منهم وثبـوا إليهم كـالليوث إلى فرائسهـا، فأطبقـوا عليهم بـالقتل والأسر والسلـب، ولم يبـق منهـم إلاّ اليسير، ووصلـت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم مـن الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريـات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هـذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر مـن المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثـاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بـانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثـلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطـلاق النار فيـه وسقـوط البرج المنقوب، وهجـوم الـرجـال فيه وبـذل السيـف في قتـل مـن فيـه ونهب ما حـواه، وانهزام مـن سلـم إلى القلعـة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطـىء، والله يسهله ويعجله.

قال: واتفـق بعد ذلـك أن الفرنـج تجمعوا مـن معاقلهـم عازمين على استنقاذ الهنفـري صاحـب بانيـاس ومن معـه من أصحـابه المحصـورين بقلعة بـانياس، وقـد أشرفوا على الهلاك وبـادروا وبالغـوا في السؤال لنـور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم مـن القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سـألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفـرنج في جمعه من الفارس والراجل مـن ناحية الجبل على حين غفلة من العسكـرين النازل على بانياس لحصـارها، والنازل على الطريـق لمنع الواصل إليهـا، اقتضت السياسـة الاندفاع عنهـا بحيث وصلوا إليهـا واستخلصوا من كـان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

ما رأينا فيما تقدّم يوما
كامل الحسن غاية في البهاء

مثل يوم الفرنج حين علتهم
ذلة الاسر والبلا والفناء

وبراياتهم على العيس زفوا
بين ذلّ وحسرة وعناء

بعد عزلهم وهيبة ذكر
في مصاف الحروب والهيجاء

هكذا هكذا هلاك الأعادي
عند شنّ الاغارة الشعواء

شؤم أخذ الجشار كان وبالا
عمهم في صباحهم والمساء

نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان منهم
من فساد بجهلهم واعتداء

لاحمى اللّه شملهم من شتات
بمواض تفوق حدّا المضاء

فجزاء الكفور قتل وأسر
وجزاء الشكور خير الجزاء

ولرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين فأنهض إليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدّ حصار حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر، وغنم منهم غنيمة حسنة ، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجه في وجهته مؤيدا.

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي الثاني عشر من جمادى الآخرة، تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الأفرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الأمر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها ثم قال بعد ذلك: قد تقدّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني

فكم أصبحت مرتاعا لخوف
فبدلت المخافة بالأمان

وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان

فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان

وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان

ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني

فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لا كسف ولا تكدار ... ولا خلت من نورك الانوار

البدر منقوص وأنت كامل ... لك السرايا وله السرار

برؤك للاسلام من أدوائه ... برو في اعدائه بوار

ما أنت إلاّ السيف صد صدأ ... عن متنه مضربه البتار

لو كان محمولا أذى عن منفس ... لحملته دونك الابصار

ولو فدت أرض السماء ساقت الـ ... ـملوك في فدائك الامصار

أنــت غيـــاث محلهــم إن أجــدبــوا
وخيرهـــم إن ذكـــر الخيـــار
وفي سريـــر الملـــك منهـــا ملـــك
للّـــــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملـــوك الأرض جـــداً وأبـــا
إن هـــز عطفـــي مـــاجـــد نجـــار
مـــد على الـــديـــن رواق دولـــة
تنـــازعـــت أسمارهـــا السمار
علـــت بنـــايـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــي عليـــه الســـور والســـوار
محمـــود المحمـــود عصر ملكـــه
فللحيـــا مـــن مـــزنـــه اعتصار
يـــا نـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــو لم تبلـــج هـــذه الاثـــار
للّـــه أيـــامـــك مـــا تخطـــه
بـــالمســـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســـلام تـــرعـــى سرحـــه
إذ اونـــى رعـــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــولا شفـــاء ردّهـــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نســـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لا عـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــا سمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

وله من قصيدة أخرى

لا نـــؤدي لأنعـــم اللّـــه شكـــرا
بـــك يـــا أعظـــم البريـــة قـــدرا
زور عشر وافى لاقـــــــــلاع ذا
جعـــــلا المنـــــة الممنـــــاة عشرا
أم مغنـــــاك ضـــامنـــا أن أيـــا
مـــك تفنـــي الأحقـــاب عصرا فعصرا
في محل لـــــه السماكـــان سمـــك
وجـــــدود لها المجـــــرة مجرى
أيها العـــــادل المظفـــــر لاقـــــ
ـــصت شبـــا الـــدهـــر مـــن شبـــاتـــك ظفـــرا
جعـــل اللّـــه مـــا استهـــل مـــن الأشـــ
ـــهر ينهـــل في مغـــازيـــك نصرا
أبـــدا ينشر التهـــاني على ســـا
حتـــك الـــزهـــر في المواســـم نشرا
أنـــت أسرى الملـــوك نفســـا وقنســـا(٨١)
وإلى أسرهـــم مـــن الطيـــف اسرى
ملـــك عنـــده المشـــارب تستمـــ
ـــري واخـــلاف الجود تمرى فتفـــرى
فلـــك اللّـــه مـــن مثمـــر بـــذر
يصطفـــي صـــالحا ويحصـــد أجـــرا
عـــش لملـــك أصبحـــت في الـــدســـت منـــه
فـــوق كسرى عـــدلا وشعبـــا وكسرا
تفطـــر الطيبـــات للفطـــر فطـــرا
وتعـــم الاعـــداء في النحـــر نحـــرا
يقتنـــي مـــن كســـاك أنفـــس ملبـــو
س ويقنيـــك منـــه أطـــول عمـــرا

أنـــت تملي ونحـــن ننظـــم مـــا تنـــــ
ـــشره الغـــر مـــن مســـاعيـــك نثـــرا
صرف اللّـــــه عنـــك عين زمـــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــوالـــت لـــك الفتـــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيـــــا وأمـــــرا
كلما انهجـــت مـــلابـــس نعمـــى
وتمليتهـــن جـــدّدت أخـــرى

وقال القيسراني من قصيدة:
أشرق البـــدر يـــا جبين الهلال
فجـــلاه لـــوجهـــك المتـــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــــة الهلال ليـــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كـــان زائرا مـــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــذه السماء سرار الـــــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــة اللّـــه لا يخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــــ
ـــران ألبســـت صـــافي الاذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقـــى والنـــدى ومعـــربـــة الخيـــ
ـــل وبيــض الظبــى وسمــر العــوالي

والخلال التـــــي إذا مـــا تحلـــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــــــق فـــــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـ
ـــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ـــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــا الملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ـــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ـــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

# فصل

# في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعا كريما صواما قواما، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: واللّه لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلوم أبت في الظلم إلاّ تماديا
وفي الصدّ والهجران إلاّ تناهيا
شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فياعجبا من ظالم جاء شاكيا

وطـــاوعـــت الـــواشين في وطـــا لما
عصيـــت عـــذولاً في هـــواهـــا وواشيـــا
ومـــــال بها تيــــه الجمال إلى القـــــلا
وهيهـــات أن أمسي لها الـــدهـــر قـــاليـــا
ولا نـــاسيـــا مـــا أودعـــت مـــن عهـــودهـــا
وإن هـــي أبـــدت جفـــوة وتنـــاسيـــا
ولما أتـــاني مـــن قـــريضـــك جـــوهـــر
جمعـــت المعـــالي فيــــه لي والمعـــانيـــا
وكنـــت هجـــرت الشعـــر حينـــا لأنـــه
تـــولى بـــرغمـــي حين ولى شبـــابيـــا
وأيـــن مـــن الستين لفـــظ مفـــوف
إذا رمـــت أدنـــى القـــول منـــه عصـــانيـــا
وقلـــت أخـــي يـــرعـــى بنـــي وأسرتي
ويحفـــظ عهـــدي فيهـــم وذمـــاميـــا
ويجزيهم مـــــا لم أكلفــــــه فعلــــه
لنفسي فقـــد أعـــددتـــه مـــن تـــراثيـــا
فما لـــك لما أن حنـــى الـــدهـــر صعـــدتـــي
وثلـــم منـــي صـــارمـــا كـــان مـــاضيـــا
تنكـــرت حتـــى صـــار بـــرك قســـوة
وقـــربـــك منـــي جفـــوة وتنـــائيـــا
فـــأصبحـــت صفـــر الكـــف مما رجـــوتـــه
كـــذا اليـــأس قـــد عفـــى سبيـــل رجـــائيـــا
على أننـــي مـــا حلـــت عما عهـــدتـــه
ولا غيرت هـــذي السنـــون وداديـــا
فـــلا غـــرو عنـــد الحادثـــات فـــإننـــي
أراك يمينـــي والانـــام شماليـــا
تهن بها عـــذراء لـــو قـــرنـــت بها
نجـــوم سماء لم تعـــد دراريـــا

تحلــــت بـــــدر مـــــن صفـــــاتـــك زانها
كما زان منظـــوم الـــــلآلي الغـــــوانيـــــا
وعـــش بـــانيـــا للجـــود مـــا كـــان واهنـــا
مشيـــداً مـــن الاحســـان مـــا كـــان واهيـــا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبـت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صدري التهم

فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدّهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا

حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم

لهم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا

تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا

بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن ودّه أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

هـلاّ انفت حياء أو محافظة
من فعل ما انكرته العرب والعجم
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يروّ سنان السمهري دم
وكنت أحسب من والاك في حرم
لا يعتريه به شيب ولا هرم
وما طمان بأولى من أسامة بال
وفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبنا جنينا ذنوباً لا يكفرها
عذر فما ذا جنى الأطفال والحرم
القيتهم في رضى الأفرنج متبعا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
جرّبهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم(٨٢)

وهي طويلة، وطُمان المذكور خادم تركي كان لأتابك ملك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمته إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمته بدمشق، وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عباس كما سبق ذكره، وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانة في فكاكه، فلم يفعل ، قال: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّه فوهبه فارساً من مقدمي الداوية يقال له المشطوب، قد بذل الافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه من الأسر، وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملك بني منقذ تولى
وكان فوق السماك سمكه

فــــاعتبروا وانظـــروا وقـــولـــوا
سبحـــان مـــن لا يـــزول ملكــــه

والمعروف ملك بني بـرمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضـه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكــــل ملـــــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــــه
إن لم يـــزل بـــانتقـــال حـــال
أزال ذا الملـــك عنـــه هلكـــه
واللّـــه رب العبـــاد بـــاق
وهـــالـــك نـــده وشركـــه
فقـــل لمن يظلـــم البرايـــا
غـــرك امهـــالـــه وتـــركـــه
تنســـى ذنـــوبـــا عليـــك تحصـــى
يحصرهـــا نقـــده وحكمـــه
كـــم نـــاســـك نسكـــه ريـــاء
أو بقــــه في المعــــاد نسكـــه
فـــاحـــذر فما يختفـــي عليـــه
مـــن عنـــده صـــدقـــه وافكـــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــع الثمانين عـــاث الضعـــف في جلـــدي
وســـاءني ضعـــف رجلي واضطـــراب يـــدي
إذا كتبـــت فخطـــي خـــط مضطـــرب
كخـــط مـــرتعـــش الكفين مـــرتعـــد
فـــاعجـــب لضعـــف يـــدي عـــن حملهـــا قلما
مـــن بعـــد حطـــم القنـــا في لبـــة الأســـد
وإن مشيـــت وفي كفـــي العصـــا ثقلـــت
رجلي كـــأني أخـــوض الـــوحـــل في الجلـــد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد(٨٣)

## فصل

## في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصرت الأخبار بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضم إليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه، وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة ، جميل الفعل، وقد علت سنة وطال عمره، وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السنة إلى نور الدين بالتشوق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منّ الله عليه به من خلاصه من الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي بلي به في أيدي الأعداء الكفرة من ملوك التركمان، ، بحيلة دبرها وسياسة أحكمها وقررها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيها في شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين أبى البركات عبد القاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

# ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الأعداء والليل نائم

يبـــــاري خيــــولا مـــــا تـــــزال كــــأنها
إذا مـــاهـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــــام في كــــل مـــــارق
ومـــــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــــه عين الـــــزمـــــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــــم جمع الفـــــرنـــــج بجملـــــة
تهون على الشجعـــــــان فيهـــــا الهزائم
فلقـــــوهــــم زرق الاسنـــــة وانطـــــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومــــا زالـــت الحرب العـــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــاتـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـــم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لــــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــبـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لا فـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــــــز إلى أرض العـــــــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــازم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــالأبـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعـــادك حيـــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنـك قــد لاقيـت مـــا اللّــه حـاتــم
بـــوقـت أصـــاب الارض مـــا قـــد أصـــابها
وحلــت بها تلــك الــدواهــي العظــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــا يـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا الانســـالم
وغـــاراتنـــا ليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
وتحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــاسيـــدا يسمـــو بهمـــ
ـــته إلى الـــرتـــب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحر
م غيره أوفى مـــزيـــه
أنـــت الصـــديـــق وإن بعـــد
ت وصـــاحـــب الشيـــم الـــرضيـــه
ننبيـــك إن جيـــوشنـــا
فعلـــت فعـــال الجاهليـــة

سارت إلى الأعداء من
أبطالها مائتا سريه
فتغير هذي بكرة
وتعاود الأخرى عشيه
فالويل منها للفرنـ
ـج فقد لقوا جهد البلية
جاءت رؤوسهم تلو
ح على رؤوس السمهرية
وقلائع قد قسمت
بين الجنود على السويه
وخلائق كثرت من الـ
ـلأسرى تقاد إلى المنية
فانهض فقد أنبيت مجـ
ـد الدين بالحال الجليه
وألم بنور الدين واعـ
ـلمه بها تيك القضية
فهو الذي ما زال تخـ
ـلص منه أفعالا ونيه
ويبيد جمع الكفر بالـ
ـبيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة
يفني بها تلك البقية
إما النصرة دينه
أو ملكه أو للحميه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقذي أنت على البعـ
ـد صديق لنا ونعم الصديق

ليـــس فيما تـــأتيـــه مـــن بـــر أفعـــا
لـــك للطـــالـــب الحقـــوق عقـــوق

فلهـــذا نـــرى مـــواصلـــة الكتـــ
ـــب تبـــاعـــا إليـــك ممـــا يليـــق

وننـــاجيـــك بـــالمهمات إذ أنـــ
ـــت بـــالقـــائهـــا إليـــك خليـــق

وأهـــم المهـــم أمـــر جهـــاد الـــ
ـــكفر فـــا سمع فعنـــدنـــا التحقيـــق

واصلتهـــم منـــا السرايـــا فـــأشجـــا
هـــم بكـــور منـــا لهم وطـــروق

وأبـــاحـــت ديـــارهـــم فـــأبـــاد الـــ
ـــقوم قتـــل مـــلازم وحـــريـــق

وانتظـــرنـــا بـــزحفنـــا بـــرء نـــور الـــديـــ
ـــن علما منـــا بـــأن سيفيـــق

وهـــو الآن في أمـــان مـــن اللّـــ
ـــه ومـــا يعتريـــه أمـــر يعـــوق

مـــا لهذا المهـــم مثلـــك مجد الـــديـــ
ـــن فـــانهض بـــه فـــأنـــت حقيـــق

قـــل لـــه لا عـــداه رأي ولا زا
ل لـــديـــه لكـــل خير طـــريـــق

أنـــت في حســـم داء طـــاغيـــة الكـــ
ـــفار ذاك المرجـــوّ والمرمـــوق

فـــاغتنـــم بـــالجهـــاد أجـــرك كـــي يلـــ
ـــقى رفيقـــاً لـــه ونعـــم الـــرفيـــق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــا أمير الجيـــوش مـــا زال لـــلاســـ
ـــلام والـــديـــن منـــك ركـــن وثيـــق

أسمعـــت دعـــوة الجهـــاد فلبـــا
هـــا مليـــك بـــالمكـــرمـــات خليـــق

ملــك عــادل أنــار بــه الــديــ
ــن فعــم الاســلام منــه الشروق
مــالــه عــن جهــاده الكفــر والعــد
ل وفعــل الخيرات شغــل يعــوق
هــو مثــل الحســام صــدر صقيــل
لين مســه وحــد زليــق
ذو أنــاة يخالها الغــراهما
لا وفيهــا حتــف الأعــادي المحيــق
فــاسلها الــلاســلام كهفين مــاطــ
ــرز ثــوب الظــلام بــرق خفــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:
قــل لابــن منقــذ الــذي
قــد حــاز في الفضــل الكمالا
فلــذاك قــد أضحــى الأنــا
م على مكــارمــه عيــالا
كــم قــد بعثنــا نحــوك الــ
ــأشعار مسرعــة عجــالا
وصــددت عنهــا حين را
مــت مــن محاسنــك الــوصــالا
هــلا بــذلــت لنــا مقــا
لا حين لم تبــذل فعــالا
مــع أننــا نــوليــك صبــ
ــرا في المودّة واحتمالا
ونبثــك الأخبــار إن
أضحــت قصــارا أو طــوالا
ســارت سرايــانــا القصــ
ــد الشــام تعتســف الــرمــالا
تــزجــي إلى الأعــداء جــر
د الخيــل اتبــاعــاتــوالا

تمضي خفـــــافـــــا للمغـــــا
ر بها وتـــــأتينـــــا ثقـــــالا
حتـــــى لقـــــد رام الاعـــــا
دي مـــــن ديـــــارهـــــم ارتحالا
وعلى الـــــــــــوعيرة معشر
لم يعهـــــدوا فيهـــــا القتـــــالا
لما نـــــأت عمـــــن يحـ
ـــــف بها يمينـــــا أو شمالا
نهضـــــت إليهـــــا خيلنـــــا
مـــــن مصر تحتمـــــل الـــــرجـــــالا
والبيـــــض لامعـــــة وبيـــــ
ـــــض الهنـــــد والاســـــل النهـــــالا
فغـــــدت كـــــأن لم يعهـــــدوا
في أرضهـــــا حيـــــا حـــــلالا
هـــــذا وفي تـــــل العجـــــو
ل مـــــلأن بـــــالقتلى التـــــلالا
إذ مـــــر مـــــري ليـــــس يلـــــ
ـــــوي نحـــــور رفقتـــــه اشتغـــــالا
واستـــــاق عسكـــــرنـــــا لـــــه
أهـــــلا يحبهـــــم ومـــــالا
وسريـــــة ابـــــن فـــــرنـــــج الطـــــا
ئي طـــــال بهم وصـــــالا
ســـــارت إلى أرض الخليـــــ
ـــــل فلـــــم تـــــدع فيهـــــا خـــــلالا
فلـــــو أن نـــــور الـــــديـــــن يجـ
ـــــعل فعلنـــــا فيهـــــم مثـــــالا
ويسير الاجنـــــاد جهـــــ
ـــــرا كـــــي ينـــــازلهم نـــــزالا
ووفى لنـــــا ولأهـــــل دولـــــ
ـــــته بما قـــــد كـــــان قـــــالا

لـــــرأيــــت لـــــلافـــــرنــــج طـــــ
ـــــراًفي معـــــاقلهـــــا اعتقـــــالا
وتجهـــــــــزوا للسير نحـــــــــ
ـــــو الغـــــرب أو قصـــــدوا الشمالا
وإذا أبـــــــــى الا اطـــــــــرا
حـــــاًللنصيحـــــة واعتـــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكـــــم خـــــالقنـــــا تعـــــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــــا أشرف الـــــوزراء أخـــــ
ـــــلاقا وأكـــــرمهـــــم فعـــــالا
نبهـــــت عبـــــدا طـــــالما
نبهتـــــه قـــــدرا وحـــــالا
وعتبتـــــه فـــــانلتـــــه
فخـــــرا ومجدا الـــــن ينـــــالا
لكـــــن ذاك العتـــــب يشـــــ
ـــــعل في جـــــوانبـــــه اشتعـــــالا
أسفـــــا لجد حـــــال عنـــــ
ـــــه إلى مســـــاءتـــــه ومـــــالا
أمـــــا السرايـــــا حين تـــــر
جـــــع بعـــــد خفتهـــــا ثقـــــالا
فكـــــذاك عـــــادوفـــــود بـــــا
بـــــك مثقلين ثنـــــا ومـــــالا
ومسيرهـــــا في كـــــل أر
ض تبتغـــــي فيهـــــا المجـــــالا
فكـــــذاك فضلـــــك مثـــــل عـــــد
لـــــك في الـــــدنـــــا ســـــارا وجـــــالا
فـــــاسلـــــم لنـــــا حتـــــى نـــــرى
لـــــك في بنـــــي الـــــدنيـــــا مثـــــالا

واشــــدديــــديــــك بــــودنــــو
رالــــديــــن والــــق بــــه الــــرجــــالا

فهــــو المحــــامــــي عــــن بــــلا
دالشــــام جمعــــا أن يــــذالا

ومبيد املاك الفرنـ
ـــــج وجمعهــــم حــــالا فحــــالا

ملــــك يتيــــه الــــدهــــر والــــدنــــ
ـــــيا بــــدولتــــه اختيــــالا

جمع الخلال الصــــــــــــــــالحا
ت فلــــم يــــدع منهــــا خــــلالا

فــــإذا بــــدا للنــــاظــــريــــ
ـــــن رأت عيــــونهم الكمالا

فبقيتما للمسلمــــــــــــــــــــ
ـــــين حما وللــــدنيــــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:

ولعمــــري إن المنــــاصــــح في الــــديــــ
ـــــن على اللّــــه أجــــره محســــوب

وجهــــاد العــــدّو بــــالفعــــل والقــــو
ل على كــــل مسلــــم مكتــــوب .

ولــــك الــــرتبــــة العليــــة في الامــــ
ـــــرين مــــذ كنــــت إذ تشــــب الحروب

أنــــت فيهــــا الشجــــاع مــــالــــك في الطعــــ
ـــــن ولا في الضراب يــــومــــا ضريــــب

وإذا مــــا قــــرضــــت فــــالشــــاعــــر المفــــ
ـــــلق فيما يقــــولــــه والخطيــــب

وإذا مــــا أشرت فــــالحزم لا ينــــ
ـــــكر إن التــــدبير منــــك مصيــــب

لـــك رأي بقظـــان إن ضعـــف الـــرأ
ي على حـــاملي الصليـــب صليـــب
فـــانهض الآن مسرعـــا فبـــأمثـــا
لـــك مـــازال يـــدرك المطلـــوب
ألـــق منـــا رســـالـــة عنـــد نـــور الـــديـــ
ـــن مـــا في القـــائهـــا مـــا يـــريـــب
قـــل لـــه دام ملكـــه وعليـــه
مـــن لبـــاس الاقبـــال بـــرد قشيـــب
أيها العـــادل الـــذي هـــو للـــديـــ
ـــن شبـــاب وللحـــروب شبيـــب
والـــذي لم يـــزل قـــديما عـــن الاســـ
ـــلام بـــالعـــزم منـــه تجلى الكـــروب
وغـــدا منـــه للفـــرنـــج إذا لا
قـــوه يـــوم مـــن الـــزمـــان عصيـــب
إن يـــرم نـــزف حقـــدهـــم فـــلا شطـــا
ن قنـــاه في كـــل قلـــب قليـــب
غيرنـــا مـــن يقـــول مـــا ليـــس يمضيـــ
ـــه بفعـــل وغيرك المكـــذوب
قـــد كتبنـــا إليـــك مـــا وضـــح الآ
ن بها ذاعـــن الكتـــاب تجيـــب
قصـــدنـــا أن يكـــون منـــا ومنكـــم
أجـــل في مسيرنـــا مضروب
فلـــدينـــا مـــن العســـاكـــر مـــا ضـــا
ق بـــأدنـــاهـــم الفضـــاء الـــرحيـــب
وعلينـــا أن يستهـــل على الشـــا
م مكـــان الغيـــوث مـــال صبيـــب
أو تـــراهـــا مثـــل العـــروس ثـــراهـــا
كلـــه مـــن دم العـــدا مخضـــوب

لطنين السيوف في فلق الصبـ
ـح على هام أهلها تطريب
وبجمع الحشود من كل حصن
سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الإله ذاك ومن غا
لب ربي فانه مغلوب

وكتب إليه أيضا:

أيها السائر المجدّ إلى الشا
م تباري ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الديـ
ـن لا ريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقرة منـ
ـا سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق الـ
ـيوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القر
ب ولا البعد با الملال يحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو
ل به لليقين منه حصول
غير أنا نواصل الكتب إذ قصـ
ـر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح اللّـ
ـه علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعد ما ذكرناه في كتـ
ـب أتاكم بهن منا رسول
أن بعض الاسطول نال من الأفـ
ـرنج ما لا يناله التأميل

سار في قلة وما زال باللّـ
ـه وصدق النيات تنمي القليل
ويقايا الاسطول ليس له بعـ
ـد إلى جانب الشآم وصول
فحوى من عكا وانطرسوس
عدّة لم يحط بها التحصيل
جمع ديوية بهم كانت الافـ
ـرنج تسطو على الورى وتصول
قيد في وسطهم مقدّمهم يهـ
ـدى إلينا وجيده مغلول
بعد مثوى جماعة هلكوا بالـ
ـسيف منها الغريق والمفلول
هذه نعمة الاله وتعديـ
ـد أيادي الاله شيء يطول
أبلغن قولنا إلى الملك العا
دل فهو المرجوّ والمأمول
قل له كم تماطل الدين في الكفـ
ـار فاحذر أن يغضب الممطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك في اللّـ
ـه فبالسير منك يشفى الغليل
وإذا ما أبطا مسيرك فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أمير الجيوش يا أعدل الحـ
ـكام في فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل الـ
ـعصر حتى تعرف المجهول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:

هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تـــأمـــل فكـــم شرط شرطـــت عليهـــم
قـــديما وكـــم غـــدر بـــه نقـــض الشرط
وشمـــر فـــانـــا قـــداعنـــا بكـــل مـــا
ســـألـت وجهـــزنـــا الجيـــوش ولـن يبطـــوا(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظـــــر إلى ذي الـــــدار كـــــم
قـــد حـــل ســـاحتهـــا وزيـــر
ولكـــــم تبختر آمنـــــا
وســـــط الصفـــــوف بها أمير
ذهبـــــوا فـــــلا واللّـــــه مـــــا
يبقـــــى الصغير ولا الكبير
ولمثـــــل مـــــا صـــــاروا إليـــــه
ـــه مـــن الفنـــاء غـــداً نصير (٨٩)

## فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدى الفرنج، وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة، وحرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكر أبو الفتح بحر بن أبى الحسن بن بحر الاشتري المعيد كان بالمدرسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضى اللّه بانهزام عسكر المسلمين وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبد الضعيف ملكتني هذه الولاية، واعطيتني هذه النيابة، وعمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى اللّه عليه وسلم، ولا أملك إلاّ نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذابا عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

# فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك ورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا. وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

# ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقـرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

## فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

# ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه اللّه تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة ، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالّله ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد باللّه إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر
اماما هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

- ٧٨٤٢ -

فعــــش أبـــدا واسلــــم لهم يـــاكفيلهـــــم
تــدافــع عنهـــم كـــل حـــادثــة تعـــرو (٩٠)

# ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال.وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها[٩١].

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم اسـ
ـتقرت بقلبي وحشة للتفرق
وأعجب شيء أنني يوم بينكم
بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي
كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
ألا جدّي يا نفس وجداً وحسرة
فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان[٩٢].

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعــــوني فما هـــذا بـــوقـــت بكـــائه
سيــأتيكـــم طـــل البكـــاء ووابلـــه
ولم لا نبكيــــه ونـنـــدب فقـــده
وأولادنـــا أيتـــامـــه وأراملـــه
فيـــاليــت شعـــري بعـــد حســـن فعـــالـــه
وقـــد غـــاب عنـــا مـــا بنـــا الـــدهـــر فـــاعلـــه
ايكـــرم مثـــوى ضيفكـــم وغـــريبكـــم
فيسكـــن أم تطـــوى ببين مـــراحلـــه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:
طمـــع المرء في الحيـــاة غـــرور
وطـــويـــل الآمـــال فيهـــا قصير

ومنها:
ولكـــم قـــدّر الفتـــى فـــأتتـــه
نـــوب لم يحط بها التقـــديـــر

ومنها:
فـــض ختـــم الحيـــاة عنـــك حمام
لا يـــراعـــي أذنـــا ولا يستشير
مـــا يخطـــى إلى جـــلالـــك اليـــوم إلا
قـــدر أمـــره علينـــا قـــديـــر
يـــا أمير الجيـــوش هـــل لـــك علـــم
أن حـــر الاســـى علينـــا أمير
إنّ قبراً حللتـــــــه لغنـــــي
إن دهـــرا فـــارقتـــــه لفقير
انطـــوى ذلـــك البســـاط وعهـــدي
وهـــو بـــالعلـــم والنـــدى مغمـــور
لا تظـــن الأيـــام أنـــك ميـــت
لم يمـــت مـــن ثنـــاؤه منشـــور

إن مضى كافل فهذا كفيل
أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها
دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوائب حتى
قيل في الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العُلى بالعوالي
ولنعم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قد كنت أشرق من ثماد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يودّ بنات نعش لو غدت
ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمامها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكـــأنها تـــابــوت مـــوســـى أودعـــت
في جـــانبيـــه سكينـــة ووقـــار
لكنـــه مـــاضـــم غير بقيـــة الاســـ
ـــلام وهـــو الصـــالـــح المختـــار
اقطنتـــــه دار الـــــوزارة ريثما
بنيـــت لنقلتـــه الكـــريمـــة دار
وتغـــايـــر الهرمـــان والحرمـــان في
تـــابـــوتـــه وعلى الكـــريـــم يغـــار
آثـــرت مصراً منـــه بـــالشرف الـــذي
حســـدت قـــرافتهـــا لـــه الأمصـــار
وجعلتهـــا أمنـــا بـــه ومثـــابـــة
تـــرجـــو مثـــابـــة قصـــدهـــا الـــزوّار
قـــد قلـــت إن نقلـــوه نقلـــة ظـــاعـــن
نـــزحـــت بـــه دار وشـــط مـــزار
مـــاكـــان إلاّ السيـــف جـــدّد غمـــده
بســـواه وهـــو الصـــارم البتـــار
والبـــدر فـــارق بـــرجـــه متبـــدّلا
بـــرجـــابـــه تتشعشـــع الأنـــوار
والغيـــث روّى بلـــدة ثـــم انتـــحى
أخـــرى فنـــوء سحـــابـــه مـــدرار
يـــامسبـــل الأستار دون جـــلالـــه
مـــاذا الـــذي رفعـــت لـــه الاستـــار
مـــالي أرى الـــزوّار بعـــد مهـــابـــة
فـــــوضـــــى ولا أذن ولا استئهار
غضـــب الالـــه على رجـــال أقـــدمـــوا
جهـــلاً عليـــك وآخـــريـــن أشـــاروا
لاتعجبـــا لقـــذار نـــاقـــة صـــالـــح
فلكـــل دهـــر نـــاقـــة وقـــذار

واخجلتــا للبيــض كيــف تطــاولــت
سفهــاً بــأيــدي الســود وهــي قصــار
واحسرتــا كيــف انفــردت لأعبــد
وعبيــدك الســادات والأحــرار
رصــدوك في ضيــق المجــال بحيث لا الــ
ــخطيّ متســع ولا الخطــار
مــا كان أقصر بــاعهــم عــن مثلهــا
لــو كنــت متروكــاً ومــا تختــار
ولقــد ثبــت ثبــات مقتــدر على
خــذلانهم لــو ســاعــد المقــدار
وتعثــرت أقــدامهــم بــك هيبــة
لــو لم يكــن لــك بــالــذيــول عثار
أحللــت دار كــرامــة لا تنقضي
أبــدا وحــل بقــا تليــك بــوار
يــاليــت عينــك شــاهــدت أحــوالهم
مــن بعــدهــا ورأت إلى مــا صــاروا
وقــع القصــاص بهم وليســوا مقنعــا
يــرضي وأيــن مــن السماء غبــار
ضــاقــت بهم سعــة الفجــاج وربما
نــام العــدوّ ولا ينــام الثــار
وتــوهموا أن الفــرار مطيــة
تنجــي وأيــن مــن القضــاء فــرار
طــاروا فمــدّ أبــو الشجــاع لصيــدهــم
شرك الــردى فكــأنهم مــا طــاروا
فتهــنّ بــالأجــر الجزيــل وميتــة
درجــت عليهــا قبلــك الأخيــار
مــات الــوصي بها وحمزة عمــه
وابــن البتــول وجعفــر الطيــار

نلــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى
حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخــــــار
ولقــــــد أقــــر العين بعـــــدك أروع
لـــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــــرار
النــــاصر الهادي الــــذي حسنــــاتــــه
عــــن سيئــــات زمــــاننــــا أعــــذار
ولما استقــــــام لحفــــــظ أمــــــة أحمد
عمــــرت بــــه الأوطــــــان والأوطــــار

## ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
علي وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله ذي الركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور

-٧٨٥٢-

عمـــــروا وشـــــادوا مـــــاتـــــرا ... ومـــــن المنـــــازل والقصـــــور

وتحولـــــوا مـــــن بعـــــد سكـــــناها إلى سكـــــنى القبـــــور (٩٤)

قلت : قال ابـن أبي عقيل هذا هو أبـو الحسن محمد بن عبـد الله بن عياض بـن أبي عقيل، صـاحب صـور، ويلقب عين الـدولة ، مـات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

# ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فكبسوهم،فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحه فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتلة في السوقة والغلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لايقف دون حلب، وكان رحمه اللّه أشجع من ذلك وأقوى عزما، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، وواللّه لاأستظل بجدار حتى أخذ بثار الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأما من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده من القوّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: والله إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد الله ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله
عمرو وعزم وبأس غير متقل
وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتـــى أتـــوكـــم ولا الماذي مـــن أمـــم
ولا الظبـــى كثـــب مـــن مـــرهـــق عجـــل
قنـــا ألقـــى وقسيّ غير مـــوتـــرة
والخيـــل عـــازبـــة تـــرعـــى مـــع الهمـــل
مـــا يصنـــع الليـــث لا نـــاب ولا ظفـــر
بما حـــواليـــه مـــن عفـــر ومـــن وعـــل
هـــلا وقـــد ركـــب الأســـد الصقـــور وقـــد
سلـــوا الظبـــى تحت غـــابـــات مـــن الاســـل
وإن هـــم أضـــاعـــوا حـــزمهـــم ثقـــة
بجمعهـــم ولكـــم مـــن واثـــق خجـــل

وبني الأصـــافـــر مـــا نلتـــم بمكـــركـــم
والمكـــر في كـــل إنســـان أخـــو الفشـــل
ومـــا رجعتـــم بـــأسرى خـــاب سعيكـــم
غير الأراذل والأتبـــــاع والسفـــــل
سلبتـــــم الجرد معــــراة بـــــلا لجم
والسمـــر مـــركـــوزة والبيـــض في الخلـــل
هـــل آخـــذ الخيـــل قـــد أردى فـــوارسهـــا
مثـــال آخـــذهـــا في الشكـــل والطـــول
أم ســـالـــب الـــرمـــح مـــركـــوزا كســـالبـــه
والحرب دائرة مــــن كــــف معتقــــل
جيـــش أصـــابتهـــم عين الكمال ومـــا
يخلـــو مـــن العين إلاّ غير مكتمـــل
لهم بيـــوم حنين أســـوة وهـــم
خير الأنـــام وفيهـــم خـــاتـــم الـــرســـل
سيقتضيكـــم بضرب عنـــد أهـــونـــه
البيـــض كـــالبيـــض والأدراع كـــالحلـــل
ملـــك بعيـــد مـــن الإدنـــاس ذو كلـــف
بـــالصـــدق في القـــول والإخـــلاص في العمـــل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تزل

وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل

قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل

طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل

أسلمتموه ووليتم فأسلمكم
بثبتة لو بغاها الطود لم ينل

فقام فرداً وقد ولت جحافله
فكان من نفسه في جحفل زجل

في مشهد لو ليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدّة الوهل

وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل

يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل

يزداد قدماً إليهم من تيقنه
أن التأخر لا يحمى من الأجل

ما كان أقربهم من أسر أبعدكم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل

ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل

ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل

واللّه عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كـم قـد ملكـت لهم ملكـا بـلا عـوض
وحـزت مـن بلـد منهـا بـلا بـدل
وكـم سقيـت العـوالي مـن طلى ملـك
وكـم قـريـت العـوافي مـن قـرا بطـل
لا نكبـت سهمـك الأقـدار عـن غـرض
ولا ثنـت يـدك الأيـام عـن أمـل

قلـت: حـاول ابـن أسعـد في هـذه القصيـدة مـا حـاولـه المتنبـي في قولـه:(غيرى بأكثر هذا النـاس ينخدع) القصيـدة، فإن كـل واحد منهما اعتذر عن أصحـابه ومدحهم، وهم المنهـزمون، وقد أحسنا معـا عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بـن أسعد هذا فقيه فاضـل وشاعر مفلق، كـان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، ولـه ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريـدته فأحسن ذكره وأكثر الثنـاء على علمه وشعره، وسيأتي ذكـره أيضا في هـذا الكتـاب في أخبـار سنة سبعين وسـت وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هـذه السنة ، أعنـي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة تـوفي عبد المؤمـن ابن علي خليفـة المهدي محمد بـن تومـرت ، صاحب المغـرب، وولي بعده ابنه يوسف.

# ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سـار أسد الـدين شيركـوه بن شـاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو مـن أكابـر الأمراء الـذين في الخدمـة النـورية، عـازما على ملـك الديـار المصرية، واستضافتها إلى المملكـة النورية، وكان أسد الديـن وأخوه نجم الديـن أيوب، وهو أكبر ابنـاء شاذي من بلد دويـن ، وهي بلدة مـن آخر بلاد أذربيجـان مما يلي الـروم، وأصلهما من الأكراد الـرّواذية، وهـذا القبيل هو أشرف الأكـراد، وقدمـا العراق وخـدما مجاهـد الديـن بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الـدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريـت ، وهي له فسار إليهـا ومعه أخوه أسد الـدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمـود، وذلك زمن المسترشد بالله سنـة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الـدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحـابه، فأحسن نجـم الدين صحبتهم وسيرهـم ،ثم إن أسد الدين قتـل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحـاة جرت بينهما فأرسل مجاهـد الديـن اليه والى اخيـه نجم الـديـن فأخـرجهما مـن تكـريـت ، وقيل إن أيوب كـان يحسن الرمايـة فرمى شخصا من ممـاليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفســه، فتوجه نحو الشـام وخدم مع زنكـي، وقيل لما قتـل أسد الـديـن شيركـوه النصرانـي وكـان عـزيـزا عند بهروز هـرب إلى الموصل، والتحق أيوب بـه وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّـه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيـوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيـد فأحسـن إليهما وعرف لهما خـدمتهما، وأقطعهما إقطـاعا حسنـا، وصـارا مـن جملة جنـده ، فلما فتـح حصـن بعلبـك جعل نجـم الـديـن دزداراً فيه، فلما قتـل الشهيـد حصر عسكر دمشـق نجم الـدين ، فـأرسل إلى سيـف الديـن غازي وقـد قـام بالملـك بعد والده ينهي الحال إليـه فلم يتفرغ لبعلبك، وضـاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين آن تؤخـذ عنوة وينالـه أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيـب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلـم القلعة ووفى له بها حلف عليـه من الإقطاع والتقـدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسـد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتـل الشهيد، وكان يخدمـه في أيام والده ، فقربـه نور الديـن وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشـاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعتـه وجرأته، فزاده إقطـاعاً،وقربـاً حتى صار له حمص والـرحبةوغيرهما، وجعلـه مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النـورية، بملك دمشق أمر أسد الـدين فراسل أخـاه نجم الـدين وهـو بها في ذلك،فطلـب منه المسـاعدة على فتحهـا، فأجاب إلى مـايراد منه، وطلب هو وأسـد الدين من نور الـدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبـذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنـازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كـانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمـرهمأو أحدهم بذلـك إلا نجم الـدين، فـإنه كان إذا دخـل إليه قعـد من غير أن يـؤمر بذلك.

فلما كان سنـة تسع وخمسين عـزم نور الديـن على إرسال العسـاكر إلى مصر، ولم يـر لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشجـع مـن أسد الـديـن، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبـا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجـــر الحديـــــد مــــن الحديـــــد وشـــاور
في نصر آل محمـــــــــــــد لم يضجـــــــــــــر
حلــــف الـــــزمــــــان ليــــأتين بمثلـــــه
حنثـــت يمينــــك يــــا زمـــــان فكفـــــر

وهو وزير الملقب بالعاضد لـدين اللّه آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنـة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الـدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهـم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقـال القاضي ابـن شداد: كـان ذلـك سنة ثمان وخمسين ، والقـول في ذلك قولهما، فقـد بينا أن قدوم شاور إلى الشـام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمـر نور الدين أسد الـدين بإعادة شـاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعـه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسـار معهم نور الديـن إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكـره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفـرنج حفظ بلادهم مـن نور الدين، ووصل أسـد الدين سـا لماً إلى مصر هـو ومن معـه ، فهـرب المنـازع لشاور في الـوزارة وقتـل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكـن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحـــق مـــن وزر الخلافـــة مـــن نشـــا
في حضرة الإكــــــرام والإجـــــلال
واختـــص بـــالخلفـــاء وانكشفـــت لـــه
أسرارهـــــا بقـــــرائن الأحـــــوال
وتصرف الـــــوزراء عـــــن آرائـــــه
كتصرف الأسماء بـــــالافعـــــال

قال عمارة: ولما جازوا بـرأسه على الخليـج وكنت أسكـن صف الخليـج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنـــك الـــوزارة صـــار سيفـــا
يجذ بحـــدّه صيـــد الـــرقـــاب
كـــأنـــك رائد البلـــوى وإلا
بشير بـــالمنيـــة والمصـــاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلـــزل الـــ
ـــأقدام وهـــي شـــديـــدة الإقـــدام

ونصرت في الأخــــرى بضرب صــــادق
أضحـــى يطير بـــه غـــراب الهام
أدركــت ثـــارا وارتجعــت وزارة
نــزعــا بسيفــك مــن يــدي ضرغــام

وكان ضرغـام أوّلا من أصحـاب شاور واتبـاعه، وقـد أشار إلى ذلـك عمارة في قوله من قصيدة له:

كــانــت وزارتــك القــديمــة مشرعــا
صفــواً ولكـــن كـــدّرت غـــدرانها
غصبــت رجــال تــاجــه وسريــره
مــن بعــد مــا سجــدت لــه تيجــانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزيــــر تمنتــــه الـــوزارة أوّلا
وثـــانيـــة عفـــواً بغير طـــلاب
فخـــانتـــه في الأولى بطـــانـــة ودّه
ورب حبيـــب في قميـــص حبـــاب
وجـــاءتـــه تبغـــي الصلـــح ثـــاني مـــرة
فلـــم يـــرض إلاّ بعـــد ضرب رقـــاب

ولم يغلب وزيـر لهم وعاد غير شاور، وكـان مدّة أخـذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهـي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتـل ولده طـيءٌ يوم الجمعة الثـامن والعشريـن من رمضـان، وجاز رأسـه على رمـح تحت الطيقان والنسـاء يـولـولـن بالصراخ، وكـان فيهـن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينســـى وفي العينين صـــورة وجهـــه الـــ
ـــكريم وعهـــد الانتقـــال قـــريـــب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

**٧٨٦٣**

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا
تاريخ هذا نلته في مثله
يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

للّه درك موتورا أقضّ به
دست وسرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلاّ يسيرا ثم لحت لنا
والثأر مستدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلاّ كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم،ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهـم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجـدهم، ويطلـب منهم أن يسـاعدوه على إخـراج أسد الـدين مـن البـلاد جاءهـم فـرج لم يحتسبوه، وسـارعوا إلى تلبيـة دعـوته والمبـادرة إلى نصرته، وطمعـوا في ملك ديـار مصر، وكان قـد بذل لهم مـالاً على المسير إليه، فتجهـزوا وساروا، فلما بلـغ نور الديـن خبر تجهيزهـم للمسير، سار بعساكره في أطـراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا مـن المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقـامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشـدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظهـا، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكـان قد وصـل إلى السـاحل جمع كبير مـن الفـرنج في البحـر لزيارة البيت المقـدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعـانوه وسار بعضهم معه وأقـام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قـارب الفرنج مصر فارقهـا أسد الـديـن، وقصد مـدينـة بلبيـس وأقـام بها هـو وعسكره، وجعلهـا ظهـراً يتحصن به، فـاجتمعت العساكر المصرية والفـرنجية، ونازلوا أسـد الدين بمـدينة بلبيـس وحصروه بها ثـلاثـة أشهر ، وقـد امتنـع أسـد الديـن بها وسـوّرها مـن طين قصير جدّاً، وليـس لـه خندق ولامعقـل يحميها، وهـو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منـه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنـج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بـانيـاس، فحينئـذ سقـط في أيـديهم وأرادوا العـود إلى البـلاد ليحفظوهـا ولعلهم يدركـون بانياس قبـل أخذها، فلـم يدركوهـا إلاّ وقد ملكها على مـا سيأتي بيـانه إن شـاء اللّه تعـالى، وراسلوا أسـد الديـن في الصلـح والعـود إلى الشـام، ومفـارقـة مصر وتسليـم مـا بيـده منهـا إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلـك لأنه لم يعلم بما فعله نـور الدين بالفـرنج في الساحل.

قال ابـن الأثير: فحدثني من رأى أسـد الدين حين خرج مـن بلبيس، قال: رأيته وقد أخـرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهـم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنـج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـــذت مـــن مصر عـــدوابمثلـــه
فللّـــه مـــن ظفـــر فللـــت ونـــاب
صـــدمـــت جموع الكفـــر والشـــام صـــدمـــة
أقمــــت بها للقـــوم ســـوق ضراب

قـــد جـــــردت أجنـــــاد مصر عـــــزائها
مضـــــاربها في الصخـــــر غير نـــــوابي
تـــولـــواعـــن الافـــرنـــج فـــادح ثقلهـــا
ودارت رحـــــاهـــــا منهـــــم بهضـــــاب
أقـــــامـــــت دروع الجنـــــد تسعين ليلـــــة
ثيـــــابـــــا لهم مـــــابـــــدلـــــت بثيـــــاب
وهـــــم بين مطـــــروح هنـــــاك وطـــــارح
وبين مصيـــــب خصمـــــه ومصـــــاب

وقال القـاضي ابن شداد: سار أسـد الدين إلى مصر واستصحـب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بـن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصـل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيـه، لما لاح له منه من آثـار الإقبال والسعادة ، والفكـرة الصحيحة، واقتران النصر بحركـاته وسكناتـه، فساروا حتـى وصلوا مصر، وشاور معهـم، وكان لـوصولهم إلى مصر وقع عظيـم، وخافـه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعـاده إلى منصبه ومرتبته، وقـرر قواعده، وشاهد البلاد وعـرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجـال، تمشي الأمور فيها بمجـرد الإيهام والمحال، وكـان ابتداء رحيله عنها، متـوجهاً إلى الشام في السابـع من ذي الحجة، فأقـام بالشام مدبـراً لأمره، مفكـراً في كيفية رجـوعه إلى البـلاد المصرية، محدّثـا بذلـك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعـل شاور مـا فعل مع أسـد الدين وصفـه الشعراء بـالغدر، ووقعـوا فيه قبـل قتله وبعـده على ما سنـذكره، وبقـي متخوفـا من أسـد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهـــــل هـــــمّ يـــــومـــــا شيركـــــوه بجلـــــق
إلى الصيـــــد إلاّ ارتـــــاع في مصر شـــــاور
هـــــو الملـــــك المنصـــــور والاســـــد الـــــذي
شـــــذا ذكـــــره في الشرق والغـــــرب ســـــائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جـــار صرف الــــردى على جيرون
وسقـــى أهلهـــا كـــؤوس المنـــون
أصبحــــت جثـــة وامســـت جحيما
تتلظـــى بكــــل قلـــب حـــزيـــن
كيـــف لا تـــذرف الـــدمـــوع عليهـــا
وهـــي في الشـــام نـــزهـــة للعيـــون
حبـــذا حصنهـــا الحصين لقـــد كـــا
ن جمالا لكـــــل حصـــــن حصين
أي سيـــف سطـــا على دار سيـــف
وزبـــون أتـــى بحـــرب زبـــون
خلـــت نيرانها وكـــل ظـــلام
نـــار ليلى تلـــوح للمجنـــون
كـــم غنـــي اليمين أمســـى فقيرا
وفقير أمســـى غنـــي اليمين
كـــل حين لها حـــريـــق جـــديـــد
ليـــت شعـــري مـــا ذا لها بعـــد حين
كـــل هـــذا البـــلاء عـــاقبـــة الفســـ
ـــق وشرب الخمـــــور والتلحين
ولقـــد ردّهـــا بعـــزم وحـــزم
أســـد الـــديـــن غـــايـــة المسكين
وحمى الجامـــع المقـــدس والمشـــ
ـــهد مـــن جرهـــا بماء معين
ملـــك فعلـــه بـــدلجة والبـــا
ب فعـــال الامـــام في صفين

# فصل

# في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه اللّه تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهم، وتأخذهـم سيوف الله مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهـم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه اللّه لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم اللّه به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

- ٧٨٧٢ -

# فصل

## في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النمو، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجدتما لم يخذل

لوشتها ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقني فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقر عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خرّق نياط قميصه ورداؤه
بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد: وكنت أنا في ذلك العهد متفقها في بغداد، واتفق حضوري بالموصل، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنده مع الفقهاء في مسألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهم وقد عزموا ارتحالا
ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشي
فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملال فكيف ملوا
وصالهم وما ملوا الملالا
أحادي عيسهم باللّه رفقا
فإن السير أورثها الكلالا
وعج نحو الأراك بها فإني
أراه لاجتماع الشمل فالا
سقى صوب الحيا تلعات نجد
وحيا بالحمى تلك التلالا
أخلائي وهل في الناس خل
به أخلو من الأحزان بالا
لئن لم أشف صدري من حسودي
ولم أذق العدى داء عضالا
فلا أدركت من أدبي مرادا
ولا صادفت من حسبي منالا
ولا وخدت إليكم بي جمال
ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغني إذا ما المرء أقوى
هو المنجي إذا ما الخطب هالا

وقـــائلـــة أفي الـــدنيـــا كـــريـــم
ســـــواه فقلــــت: لا وأبي العــــلالا
أطلــــت على الــــورى كـــرمـــاً وفخـــراً
كـــذلـــك مـــن حـــوى هـــذيـــن طـــالا
وخـــرت المجـــد عـــن كســـب وارث
فيـــاصـــدر الـــورى خـــرت الكمالا
خصصـــت بكـــل منقبـــة وفضـــل
تعـــالى مـــن حبـــاك بـــه تعـــالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيـــــه والصـــــدور كما
يهوى المعـــــالي محمـــــد بـــــن علي
جمال ديــــن الإلـــــه خير فتـــــى
للـــرزق أقـــلامـــه ولـــلأجـــل
معطـــي القـــرى والقـــرى لقـــاصـــده
مـــن غير مـــنّ والخيـــل والخول
مثـــل فتـــوح الفـــاروق نـــائلـــه
شرقـــاوغـــربـــا في السهـــل والجبـــل
مـــن قـــال لم يحوذا ويسكـــن ذا
أصبـــح ممـــا يقـــول في خجـــل
محمـــد خـــاتـــم الكـــرام كما
سميـــه كـــان خـــاتـــم الـــرســـل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كســـى الحرمين لبســـة عبـــد شمـــس
وهـــاشـــم غـــرّتي نســـل الخليـــل
وللبلـــد الأمين أجـــدّ أمنـــا
تكنـــف مثلـــه جـــدث الـــرســـول

عشيتـــــم يــــا ولاة الأمـــــر عما
أتيـــح لـــه مـــن الأثـــر الجميـــل
وطــــار لها وأشفقتـــم فشـــد الـــ
ـــسيدين على عـــرى المجـــد الأثيـــل
بيـــوت بـــا لحجـــاز مقـــدّســـات
رمـــاهـــا الـــدهـــر بـــالخطـــب الجليـــل
وكـــان إذا الهنّ فصـــاب صـــونـــا
لمن آوتـــــه مـــــن ولـــد البتـــــول
مـــآثـــر بـــاقيـــات يـــوم يجنـــى الـــ
ـــمقال ويجتنـــى طيـــب المقيـــل
وكـــم للمـــوصـــل الحدبـــاء ممـــا
تنيـــل يـــداه مـــن ريـــف ونيـــل
بـــرود الصفـــح ملتهـــب الحواشي
مهيـــب البطـــش فـــراس الـــدخـــول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:
أغـــر يبصر منـــه النـــاس في رجـــل
والليـــث في بشر والبـــدر في غصـــن
سما بهمتـــه في المكـــرمـــات إلى
عليـــاء يقصر عنهـــا همة الـــزمـــن
يلقـــاك واضـــح ليـــل الفكـــر راجـــح نيـــ
ـــل الكـــف طـــاهـــر ذيـــل السر والعلـــن
مـــاضي العـــزيمـــة ميمـــون النقيبـــة ريـــ
ـــبال الكتيبـــة عين القـــائل اللســـن
إذا تكلـــم واستحليـــت غـــرتـــه
في محفـــل رحـــت حـــالي العين والأذن
كـــأن في الـــدســـت منـــه حين تنظـــره
شمـــس النهـــار وصـــوب العـــارض الهتـــن

قـال ابـن الاثير: وفيهـا في شعبـان من هـذه السنـة وهـي سنـة تسع

وخمسين وخمسمائة توفي الـوزير جمال الديـن محمد بن علي بـن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فـولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الـرحبة، فأبـان عن كفايـة وعفة، وكـان من خواصـه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضيـاء الدين بـن الكفرتوثـي يحكي عـن جمال الدين قـال: كان يدخل إلى أتـابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلـك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولـدي الشهيد سيف الديـن، ثم قطب الديـن، وكان بينه وبين زين الـدين علي كـوجك عهـود ومواثيـق على المصافـاة والاتفاق، وكـان أصحاب زيـن الديـن يكرهونـه، ويقعون فيـه عند زين الـدين فنهـاهم، وكانت الموصل في أيـامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنـا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الـدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا لـه: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليـه زين الدين من غيره عن مصافاتـه ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كـانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهـي، على خلاف غـرض زين الديـن، فبقي جمال الـدين في الحبـس نحواً مـن سنة، ثـم مرض ومضـى لسبيله عظيـم القدر والخطـر، كريم الـورد والصدر، عديم النظير في سعة نفـس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا مـن الوزراء اتسعـت نفسه، ومروءتـه لما اتسعت لـه نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيـخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمـة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغـولا بأمـر آخرتـه مدّة حبسـه، وكان يقـول: كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، قال: فلما مـرض قال لي بعض الأيام: يـا أبا القـاسم إذا جـاء طـائر أبيض إلى الـدار فعـرفنـي، فقلت في نفسي: قـد اختلط الرجـل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلـك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثلـه قد سقط، فقلت لـه: قد جاء الطائر، فـاستبشر، ثم قال،

جـاء الحق، وأقبل على الشهـادة، وذكر اللّـه تعالى، وتـوفي فلما توفي طـار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئـا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسـم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبـه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضـل الصلاة والسـلام فدفنـه بها في التربة التـي عملها، فـإن أنا مـت فامـض إليه وذكره، فلما تـوفي سار الشيخ أبو القـاسم إلى أسد الـدين في هذا المعنـى، فأعطـاه مالاً صـالحاً ليحمله بـه إلى مكة والمدينـة، وأمر أن يحج معـه جماعة مـن الصوفيـة، ومـن يقرأ بين يـدي تـابوتـه عند النـزول والرحيل، وقدوم مـدينة تكون في الطريق، وينادون في البـلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كـل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع النـاس للصلاة عليه، فإذا شـاب قد ارتفع إلى موضـع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشـــه فـــوق الـــرقـــاب وطـــالما
سرى بـــره فـــوق الـــركـــاب ونـــائلـــه
يمـــرّ على الـــوادي فتثنـــي رمـــالـــه
عليـــه وفي النـــادي فتبكـــي أراملـــه

فلم يـر باكيا أكثـر من ذلك اليـوم ، ثم وصلوا بـه إلى مكة فطافـوا به حـول الكعبة وصلـوا عليـه بالحرم،وحملـوه إلى المدينـةفصلـوا عليه أيضـا ودفنـوه بالـرباط الـذي أنشـأه بها، وبينه وبين قبر النبـي صلى الله عليـه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلـت: كـذا قـال ابن الاثير، ولقـد رأيـت المكـان، ولعلـه أراد الحائط الشرقي مـن مسجد النبي صلى اللـه عليه وسلم، لانفـس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثـم قال: كـان جمال الديـن رحمه الله أسخـى الناس وأكثـرهم عطـاء وبـذلا للمال، رحيما بالنـاس ومتعطفـا عليهم عـادلاً فيهـم، فمن أعمالـه

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلاّ هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سـوى الإدرارات والتعهدات قـال: كـان له كـل يـوم مـائة دينار أميريـة يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم يـر الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلـة عنـد جزيـرة ابـن عمـر بـالحجـر المنحوت والحديـد والـرصـاص والكلس، إلاّ أنـه لم يفرغ لأنـه قبض قبل فـراغه، وبنـى أيضا جسرا على نهر الباريـا عند الجزيـرة أيضا، وبنـى الربـط بالموصـل وسنجار ونصيبين وغيرهـا، وقصـده النـاس مـن أقطار الأرض، ويكفيـه أن صـدر الـديـن الخجنـدي رئيس أصحـاب الشـافعي رضي اللّـه عنـه بـأصبهان ، وابـن الكافي قـاضي قضاة همذان قصداه، فـأخرج عليهما مـالاً جزيلا وكـذلك غيرهما مـن الصدور والعلماء ومشـايـخ الصـوفية ، وصـارت الموصـل في أيـامـه مقصـداً وملجـأ، وكـان أحـب الاشيـاء إليـه إخـراج المال مـن الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكـى لي والدي قـال: كنت يـوما عنـده وقد أحضر بين يـديه قنـدز ليعمل على وبـر ليلبسه بخمسة دنـانير، فقال: هـذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قـال: وحكـى لي من اثـق إليـه مـن العـدول بالموصـل: أن الأقـوات تعذرت في بعـض السنين بها، وغلت الأسعـار، وكان بـالموصل رجـل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فـأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال لـه: تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فـرغ أرسل إلي لأنفـذ غيره، فلم يمض إلاّ أيـام يسيرة حتى فـرغ ذلك المال لكثـرة المحتاجين، فـأنفذ لـه شيئا آخـر ففني، ثم أرسـل يطلب ما يخرجه فقـال جمال الدين للـرسول: واللّـه ما عنـدي شيء ولكـن خذ هـذه المحـافير التـي في داري فبيعوهـا وتصدّقوا بثمنهـا إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيـخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقـوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلـم يكن عنده ما يرسلـه فأعطاه

ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للرسول: قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا احضر لك فلانا العربي ، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة أصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه، قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئا وتردّد إليه عدة أيام، ثم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه .فقيل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك اللّه خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

ما حط قدرك من أوج العلى القدر
كلا ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذي عم أهل الأرض نائله
ولم ينل شأوه في سؤدد بشر
سارت صفاتك في الآفاق واتضحت
وصدّق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به
فآخر الصبر يا طود النهى الظفر
فما ترى أحداً في الخلق يسلم من
صروف دهر له في أهله غير
سعوا بقصدك سراً واستتب لهم
ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا
لولا الأماني التي تحيى النفوس بها
لمت من لوعة في القلب تستعر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:

وأصدق الناس في حفظ العهود إذا
ميزت بالفكر أحوال الورى عمر
الزاهد العابد البرّ التقي ومن
يزوره ويقوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:

لا خير في الدنيا ولا أهلها
بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما
ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطْب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـاية أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليـه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

# ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيهـا فتح نور الدين قلعـة بانياس من الفـرنج، وكان قد سار إليها بعـد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصـل وديار بكر بالعـود إلى بلادهم، وأظهر أنـه يريد طبرية، فجعـل من بقي من الفـرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيهـا من الحماة، المانعين عنهـا، ونازلها وضيـق عليها وقـاتلها، وكـان في جملة عسكره أخـوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهـم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشـف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تـذهب الأخـرى، وجدّ في حصارهـا، وسمع الفـرنج بـذلك، فجمعوا فلم تتكامـل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفـرنج كانوا قـد ضعفوا بقتـل رجالهم بحـارم وأسرهم، فملـك القلعة ومـلأها ذخـائر وعـدّة ورجالا عـدّة، وعاد نـور الديـن إلى دمشـق وفي يده خـاتم بفـص ياقـوت من أحسن الجوهـر فسقط من يـده في شعراء بانيـاس وهي كثيرة الأشجار ملتفـة الأغصان، فلما أبعـد من المكـان الذي ضـاع فيه الفـص علم بـه فأعـاد بعض أصحـابه في طلبـه ودلهم على مكانـه، وقال: أظنـه هناك ضـاع، فعادوا إليه فوجـدوه، فقال بعض الشعراء الشـاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحـه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكـــاك فيـــك فـــإنـــك الـــ ـــمهدي مطفـــي جمرة الـــدجـــال
فلعـــودة الجبـــل الـــذي أضللتـــه بـــالامـــس بين غيـــاطـــل وجبـــال
مسترجعـــالـــك بـــالسعـــادة آيـــة ردت مطـــال الفـــال غير مطـــال
لم يعطهـــا إلا سليمان وقـــد نلـــت الـــوفـــاء بمـــوشـــك الاعجـــال

زجر جرى لسرير ملكك إنه
كسريره عن كل جد عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وأمرتهن قذفنه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:
أخرست شقشقة الضلال وقدته
قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم
القحت فيها الحرب بعد حيال
وسعرت بين تريبهم وترابهم
ذعرا يشيب نواصي الاطفال
فوق الخطيم وقد خطمت زعيمهم
ضربا سوابقه بغير توالي
ضربا ملأت فرنجة من جرّه
رهبا به سيف الصقالب صالي
وبفج حارم أحرمت لقراعهم
هيم أحلن النوم غير حلال
عجموا على جسر الحديد حديدها
نبعا يعاذمه أدير دصال

زلزلت أرضهم بوقع صواعق
أعطيتنا أمنا من الزلزال

في مأزق شمرت ذيلك تحته
والنصر فوقك مسبل الاذيال

في دولة غراء محمودية
سحبت رداء الحمد غير مذال

تنسي الفتوح وتجتني
زهر المقال بباهر الأفعال

لبست بنور الدين نور حدائق
ثمراتهن غرائب الافضال

ملك تحجب في السرير بزأرة
زرّت حواشيها على ريبال

تنجاب عن ذي لبدتين شذاته
في بردتي بدل من الأبدال

رفع الرواق بروق أنطاكية
فرمى الخليج بمرهق البلبال

بدر لأربع عشرة أقتبس السنا
من خمس عشرة سورة الأنفال

فوز المآل أخاضه ماء الطلى
وسواه يقعده احتياز المال

متقسم بين القسيمين العلى
عن عمّ عم أو مخايل خال

لازلت تطلع من ثنايا جحفل
يقفو لواءك كاللوى المنهال

لك أن تطل على الكواكب راقيا
ولحاسديك بكا على الأطلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

- ٧٨٩٠ -

# ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

للّه شبلا أسد خادر ... ما فيهما جبن ولا شح
ما أقبلا إلاّ وقال الورى ... قد جاء نصر اللّه والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون(٩٧))، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نورالدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج نارا والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعـــدت إلى جســـم الـــوزارة روحهـــا
وما كـان يـرجـى بعثهـا ونشـورهـا

أقـامـت زمـانـا عنـد غيرك طـامثـا
فهـذا الأوان قـرؤهـا وطهـورهـا

مـن العـدل أن يحظـى بها مستحقهـا
ويخلعهـا مـردودة مستعيرهـا

إذا ملـك الحسنـاء مـن ليـس كفـؤهـا
أشـار عليـه بـالطـلاق مشيرهـا

وله يشكو طبيبا:

وأصـل بليتـي مـن قـد غـزاني
مـن السقـم الملـح بعسكـريـن

طبيـب طبـه كغـراب بين
يفـرق بين عـافيتـي وبينـي

أتـى الحمـى وقـد شـاخـت وبـاخـت
فـردّ لها الشبـاب بنسختين

ودبـرهـا بتـدبير لطيـف
حكـاه عـن سنـان أو حنين

وكـانـت نـوبـة في كـل يـوم
فصيرهـا بحـذق نـوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديـوانه، وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لجاجـة قلـب مـا يفيـق غـرورهـا
وحـاجـة نفـس ليـس يقضـى يسيرهـا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنا صفوفا في الديار كأنها
صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتها لي ليس في الأرض جنة
أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم
أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر إنا عصابة
إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ويقول في مديحها:
فقل لليالي كيف شئت تقلبي
ففي يد عبل الساعدين أمورها
أماني في نفس الوزارة بلغت
به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إلى خاطب حل عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة
ترف على تلك الرؤوس طيورها

# ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت ... مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ ... ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ ... ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى ... حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلاّ أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم في الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له:إن نحن إنهزمنا وهو الذي لاشك فيه فإلى أين نلتجي وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم، وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحا أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم،فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج

ماذكره أسد الدبن، وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

## فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

مــــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بها ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما همامـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــك مصر ونصر المؤمنين غـــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف من ربيع الأوّل ووصل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأناخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر

من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر

أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر

أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر

تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلا حديثك ما بين الورى سمر

فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لو في زمان رسول الله كنت أتت
في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والاقدام منفردا
فقل لنا أعليّ أنت أم عمر
اسكندر ذكروا أخبار حكمته
ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته
وصار فيك عيانا ذلك الخبر
أفخر فإن ملوك الأرض أذهلهم
ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت إذ رقدوا بل هجت إذ سكنوا
وصلت إذ جبنوا بل طلت إذ قصروا
يستعظمون الذي ادركته عجباً
وذاك في جنب ما نرجوه محتقر
قضى القضاء بما نرجوه عن كثب
حتما ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك إدمان السرى وشكت
من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها
لغير رأيك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت
مآرب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا
في أمره كيف لا يقوى له المرر
يرى برأيك ما في الملك يبرمه
فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الأفرنج فانتصفت
منها باقدامك الهندية البتر

غـرسـت في أرض مصر مـن جسـومهـم
أشجـار خـط لها مـن هـامهـم ثمـر
وسـال بحـر نجيـع في مقـام وغـى
بـه الحديـد غمام والـدم المطـر
انهرت منهـم دمـاء بـالصعيـد جـرى
منهـا إلى النيـل في واديهم نهر
رأوا إليـك عبـور النيـل إذ عـدمـوا
نصرا فما عبروا حتـى قـد اعتبروا
تحت الصـوارم هـام المشركين كما
تحت الصـوالـج يـومـا خفـت الاكـر
أفنـت سيـوفـك مـن لاقـت فـإن تـركـت
قـومـا فهـم نفـر مـن قبلهـا نفـروا
لم ينـج إلاّ الـذي عـافتـه مـن خبـث
وحـش الفـلا وهـو للمحـذور منتظـر
والسـاكنـون القصـور القـاهـريـة قـد
نـادى القصـور عليهـم أنهم قهـروا
وشـاور شـاوروه في مكـايـدهـم
فكـاده الكيـد لما خـانـه الحذر
كـانـوا مـن الـرعـب مـوتـى في جلـودهـم
وحين أمنتهـم مـن خـوفهـم نشروا
وإن مـن شيركـوه الشرك منخـزل
والكفـر منخـذل والـديـن منتصر
عـوّل على فئـة عنـد اللقـاء وفـت
وعـدّ عـن تـركمان قبلـه غـدروا
وكيـف يخذل جيـش أنـت مـالكـه
والقـائدان لـه التـأييـد والظفـر
أجـاب فيـك إلـه الخلـق دعـوة مـن
يطيـب بـالليـل مـن أنفـاسـه السحـر

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيـــف قلتــــم بمقلتــــه فتـــور
وأراهـــــا بـــــلا فتــــور تجور

ومنها:

مستجيـــــز جـــــوري وإني منـــــه
بـــابـــن أيـــوب يـــوسـف مستجير
فضلــــه في يـــد الـــزمـــان ســـوار
مثلهـــا رأيــــه على الملــك ســـور
كـــرم ســـابـــغ وجـــود عميـــم
ونـــدى ســـائغ وفضـــل غـــزيـــر
أنـــت مـــن لم يـــزل يحنّ إليـــه
وهـــو في المهـــد سرجـــه والسريـــر
مـــن دم الغـــادريـــن غـــادرت بـــالأمـــ
ـــس صعيـــد الصعيـــد وهـــو غـــديـــر
ولكـــل ممـــا تطـــاولـــت فيهـــم
أمـــل قـــاصر وعمــــر قصير
لاذ بـــالنيـــل شـــاور مثـــل فـــرعـــو
ن فـــذل الـــلاجـــي وعـــز العبـــور
شـــارك المشركين نعيـــا وقـــدمـــا
شـــاركتهـــا قـــريظـــة والنضير
والـــذي يـــدعـــي الامـــامـــة بـــالقـــا
هـــرة ارتـــاع أنــــه مقهـــور
وغـــدا الملـــك خـــائفـــا مـــن سطـــاكـــم
ذا ارتعـــاد كـــأنـــه مقـــرور
وبنـــوا الهنفـــري هـــانـــوا ففـــروا
ومـــن الاســـد كـــل كلـــب فـــرور

إنما كـــــان للكـــــلاب عـــــواء
حيـــث مـــا كـــان لـــلأســـود زئير
وفليـــب عنـــد الفـــرار سليـــب
فهـــو بـــالـــرعـــب مطلـــق مـــأســـور
لم يبقـــوا ســـوى الأصـــاغـــر للسبـــ
ـــي فـــودوا لـــو أن الكبير صغير
وحميـــت الاسكنـــدريـــة عنهـــم
ورحـــى حـــربهم عليهـــم تـــدور
حـــاصروهـــا ومـــا الـــذي بـــان مـــن ذبـــ
ـــك عنهـــا وحفظهـــا محصـــور
كحصـــار الأحـــزاب طيبـــة قـــدمـــا
ونبـــي الهدى بها منصـــور
فـــاشكـــر اللّـــه حيـــث أولاك نصراً
فهـــو نعـــم المولى ونعـــم النصير
ولكـــم أرجـــف الأعـــادي فقلنـــا
مـــالمـــاتـــذكـــرونـــه تـــأثير
ورقبنـــا كـــالعيـــد عـــودك فـــاليـــو
م بـــه لـــلانـــام عيـــد كبير
عـــاد مـــن مصر يـــوســـف وإلى يعـــ
ـــقوب بـــالتهنيـــات جـــاء البشير
فـــلأيـــوب مـــن إيـــاب صـــلاح الـــ
ـــدين يـــوم بـــه تـــوفى النـــذور
ولكـــم عـــودة إلى مصر بـــالنصـــ
ـــر على ذكـــرهـــا تمر العصـــور
فـــاستردّوا حـــق الإمـــامـــة ممـــن
خـــان فيهـــا فـــإنـــه مستعير
وافترعهـــا بكـــرا لها بمـــدى الـــدهـــ
ـــر رواح في مـــدحكـــم وبكـــور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــدك انتهـــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــألـــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلهـا طـويلتان جـداً، فانتظمـت معـرفة العماد بصـلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــــاقـــــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤســـا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاوركـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــازال حتـــى
بنـــا مجداً على الســـبـــع الطبـــاق

# فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مواقد النيران

يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا
حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قدما فسل عن حارث الجولان

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسند روايتها إلى حسان

مازلزلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائبا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران

عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان

وثللت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران

ولقد أتى الاسطول حين غزا بها
لم يأت في حين من الاحيان

وأعـــدّت رســـل ابـــن القسيـــم إليـــه في
شعبـــان كـــي يتـــلاءمَ الشعبـــان
والفـــال يشهـــد في اسمـــه أن ســـوف يغـــ
ـــدو الشـــام وهـــو عليكما قسمان
وأراك مـــن بعـــد الشهيـــد أبـــاً لـــه
وجعلتـــه مـــن أقـــرب الاخـــوان
وهـــو الـــذي مـــا زال يفعـــل في العـــدى
مـــا لم يكـــن ليعـــدّ في الامكـــان
قتـــل البرنـــس ومـــن عســـاه أعـــانـــه
لما عســـا في البغـــي والعـــدوان
وأرى البريـــة حين عـــاد بـــرأســـه
مـــرّ الجنـــى يبـــدو على المرّان
وتعجبـــوا مـــن زرقـــة في طـــرفـــه
وكـــأن فـــوق الـــرمـــح نصـــلا ثـــاني
عجبـــا لجود يـــديـــه إذ يبنـــي العـــلا
والسيـــل يهدم ثـــابـــت الأركـــان
قلـــدت أعنـــاق البريـــة كلهـــا
مننـــا تحمـــل ثقلهـــا الثقـــلان
حتـــى تســـاوى النـــاس فيـــك وأصبـــح الـــ
ـــقاصي بمنـــزلـــة القـــريـــب الـــداني

وفي هذه السنة ذكـر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :
لـــو حفظـــت يـــوم النـــوى عهـــودهـــا
مـــا مطلـــت بـــوصلكـــم وعـــودهـــا
وإنما يحمـــــد عيـــــش بلـــــدة
مـــالكهـــا بعـــدلـــه محمـــودهـــا

مـــؤيـــد أمــــوره بعـــزمـــة
مـــن السمـــوات العلى تـــأييـــدهـــا
آثـــــــاره حميـــــــدة وإنما
للمـــــرء مـــن آثـــاره حميـــدهـــا
ان الـــــورى بحبــــه وبغضــــه
يعـــرف مـــن شقيهـــا سعيـــدهـــا
قـــد جـــاءكـــم نـــور مـــن الله فمـــن
بـــه اهتـــدى فـــإنـــه رشيـــدهـــا
جـــلا ظـــلام الظلـــم نـــور الـــديـــن عـــن
أرض الشـــام فلـــه تحميـــدهـــا
إن الـــرعـــايـــا منـــه في رعـــايـــة
ونعمـــة مستـــوجـــب مـــزيـــدهـــا
لنـــومهـــا يسهـــر بـــل لأمنهـــا
يخاف بـــل لخصبهـــا بجـــودهـــا
بـــالـــديـــن والملـــك لـــه قيـــامـــه
والملـــوك عنها قعـــودهـــا
ودأبـــه ثلـــم ثغـــور الكفـــر لا
لثـــم ثغـــور نـــافـــع بـــرودهـــا
قـــد أسبـــغ الله لنـــا بعـــدلـــه
ظـــلال أمـــن وارف مـــديـــدهـــا
غـــدا ملـــوك الـــروم في أولتـــه
وهـــم على رغمهـــم عبيـــدهـــا
لما أبـــت هـــامـــاتهم سجـــودهـــا
لله أضحـــى للظبـــى سجـــودهـــا
إن فـــارقـــت سيـــوفـــه غمـــودهـــا
فـــإنّ هـــامـــاتهم غمـــودهـــا
كـــم مغلقـــات مـــن حصـــون عـــزمـــه
مفتـــاحهـــا وسيفـــه أقليـــدهـــا

قد ودّت الفرنج لو فرّت نجت
منك ولكن روعها مبيدها
قهرتها حتى لودّ حيها
من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك في حصونها
كأنها حصونها لحودها
وإن مصر الملك تعنو بعدما
لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغراء خال بالها
عال سناها بك حال جيدها
مفترّة ثغورها ممنوعة
ثغورها محفوظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالة
فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي
خرّت له من الملوك صيدها
دع العدى بغيظها فإنها
يذيب أكباد العدى حقودها
يا دولة نورية أمن الورى
وخصبها وجودها وجودها
ما مثل الدنيا لمن يجمعها
بالحرص إلاّ قزة ودودها
أين الذي يرفضها عن قدرة
فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاؤه
في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها
ودولة سعيدة جدودها

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة [٩٩] .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

# ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيـــا شرف الـــديـــن إن الشتــــا
بكـــافـــاتـــه كـــف آفـــاقـــه
وكفـــك مـــن كـــرم كـــافهـــا
قـــد كفلـــت لي بكـــافـــاتـــه
وإنـــك مـــن عـــرفـــه شكـــرنـــا
غـــداعـــاجـــزاعـــن مكـــافـــاتـــه

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا مـــا الشتـــاء وأمطـــاره
عـــن الخير حـــابســـة رادعـــه
فكـــافـــاتـــه ألســـت أعطيتهـــا
وحـــوشيـــت مـــن كـــافـــه الـــرابعـــة
وكـــف المهـــابـــة والاحتشـــا
م لكفـــي عـــن بـــره مـــانعـــة
وهمة كـــل كـــريـــم النجـــا
ربميســـور أحبـــابـــه قـــانعـــة
ونفسي في بســط عـــذري إليـــ
ـــه جعلـــت الفـــداء لـــه طـــامعـــه
وشـــوقـــي إلى قـــربـــه زائد
ومعـــذرتي إن جفـــا واسعـــه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيـــا مـــن لـــه همة في العلى
لـــذروتها أبـــدا فـــارعـــه
ومـــن كفـــه ديمـــة مـــاتـــزا
ل بـــالعـــرف هـــاميـــة هـــامعـــه
وللفضـــل في ســـوق أفضـــالـــه
بضـــائع نـــافقـــة نـــافعـــة
وهـــل كـــابـــن عصرون في عصرنـــا
إمـــام أدلتـــه قـــاطعـــة

فخير فـــوائده جمة
وبحـر مـوارده واسعة
أيا شرف الـدين شرفتني
بـاهـداء زائعـة رائعة
أطعت أوامـرك الساميا
ت ومـا برحـت همتي طـائعة
أرى كـل جـارحـة لي تـ
ـودلـو أنها أذن سـامعه
وأمـا الشتـاء وكـافـاتـه
وكفـك عـن كـافـه الـرابعة
فنفسي منـزعـة بـالعفـا
ف عنهـا وفي غيرهـا طـامعه
ومـا ذا تطيـق إذا لم تكـن
بميسـور سيـدنـا قـانعه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالـك فتـح قلعـة منبـج
فليهـن هـذا النصر كـل متـوج
أعطيـت هـذا الفتـح مفتـاحـابـه
في الملـك يفتـح كـل بـاب مـرتـج
وافى يبشر بـالفتـوح وراءه
فـانهض إليهـا بـالجيـوش وعـرج
أبشر فبيـت القـدس يتلـو منبجـا
ولمنبج كسواه كـالانمـوذج

مـــا أعجـــزتـــك الشهـــب في أبـــراجهـــا
طلبـــا فكيـــف خـــوارج في أبـــرج

ولَقَـــدْ مـــن يعصيـــك أحقـــر أن يـــرى
أثـــر العبـــوس بـــوجهـــك المتبلـــج

لكـــن تهذب مـــن عصـــاك سيـــاســـة
في ضمنهـــا تقـــويـــم كـــل معـــوج

فـــانهد إلى البيـــت المقـــدّس غـــازيـــا
وعلى طـــرابلـــس ونـــابلـــس عـــج

قـــد سرت في الإســـلام أحســـن سيرة
مـــأثـــورة وسلكـــت أوضـــح منهـــج

وجميـــع مـــا استقـــريـــت مـــن سنـــن الهدى
جـــدّدت منـــه كـــل رســـم مبهـــج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا وواليا، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي :

أدركـــت مـــن أمـــر الـــزمـــان المشتهـــى
وبلغـــت مـــن نيـــل الأمـــاني المنتهـــى

وبقيـــت في كنـــف الســـلامـــة آمنـــا
متكـــرمـــا بـــالطبـــع لا متكـــرهـــا

لا زلـــت نـــور الـــديـــن في فلـــك الهدى
ذا غـــرّة للعـــالمين بها البهـــا

يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
مـــن عـــدلـــه رعـــت الأســـود مـــع المهـــا

محمـــود المحمـــود مـــن أيـــامـــه
لبهـــائهـــا ضحـــك الـــزمـــان وقهقهـــا

مـــولى الـــورى مـــولى النـــدى معلي الهدى
مـــردي العـــدى مســـدي الجدى معطي المهـــا

آراؤه بصــــــوابها مقــــــرونـــــة
وبمقتضــــاهــــا دائر فلــك النهــا

متلبـــس بحصـــافــه وحصــانـــه
متقــدّس عـــن شــوب مكــر أو دهــا

يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متــأوبــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا

أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا

كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا

مـــاصين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا

مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـدت شمـس الضحـى خفـي السهـا

إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبهالـــه والملـــك منـــه مـــالها

شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا

مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائما
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا

أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا

ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــي فقيرا أو تجير مـــدلها

لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا

وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عــــن رحمة لصغيرهــــم لم تشتغــــل
عــن رأفــة لكبيرهــم لــن تشـدهــا
بــاليــأس عنــدك أمــل لم يمتحــن
بــالــردّ دونــك ســائل لــن يجبهــا
أتعبــت نفســك كــي تنــال رفــاهــة
مــن ليــس يتعــب لا يعيــش مــرفهــا
فقــت الملــوك سماحــة وحماســة
حتــى عــد منــافيهــم لــك مشبهــا
ولــك الفخــار على الجميــع فــدونهم
أصبحــت عــن كــل العيــوب منــزهــا
وأراك تحلــم حين تصبــح ســاخطــا
ويكــاد غيرك ســاخطــا أن يسفهــا

قلت : رحم الله العماد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه، وهذا البيت الأخير مؤكد لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله في وصف نور الدين رحمه الله أنه لم يسمع منه كلمه فحش في رضاه ولافي ضجره، وقل من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضربت خيمته في رأس الميدان الأخضر، قال: وكان مولعا بضرب الكرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفره، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكره، وهو عارف بآدابها في الخدمة وشروطها المعتبره، قال: وأقطعه في تلك السنة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحــت بغلتــي تشكــي مــن العــر
ى وإسراجهــــا بــــلا كنبــــوش
قلــت كفــي فخير يــوميــك عنــدي
أن تفــوزي بــالتبــن أو بــالحشيــش

وأفـــرحـــي ليلـــة الشعير كما يفـــر
ح قـــــوم بليلـــــة المأشـــــوش

لـــــو تبصرت حـــالتـــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي

أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
د ومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي

فيقـــي واسكنـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش

فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش

كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــــوده منعــــــوش

والموالي على الأسرة والأعـــــــــ
داء تحت الهوان فـــوق النعـــوش

قـال: وأقطع أسـد الديـن حمص وأعمالها، فسار إليها فسد ثغورها، وضبـط أمورهـا ، وحمى جمهـورها، وكـان نـور الـدين قـد جـدد سورهـا، وحصن دورهـا وبلي الفرنـج منه بالمغـاور ، والمراوغ ذي البأس الـدامغ، وسـأله نـور الـديـن في السلو عـن حـب مصر وقـال: قد تعبت مـرتين واجتهـدت، ولم يحصل لـك مـا طلبـت، وقد أذعنـوا بـالطـاعه وشفعـوا السؤال بـالشفاعة وسمحـوا بكل مـا يدخل تحت الاستطـاعة [١٠] قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي

يـــا كـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــــذاذ

ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلا زلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

- ٧٩١٩ -

في نفوس الكفار رعبك قد حل
بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبى رؤوساً وأصنا
ما من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ
ـر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ
ـت من الشرك أيما انقاذ

## فصل
## في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً ، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابةفأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون أنني لاأعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشدّ على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لاأدري ماتقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأمورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبري مدّة، ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

- ٧٩٢١ -

# ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
ـشرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا
هتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثواباً وتهدم البيعا

مـــازلـــت ذا فطنـــة مـــؤيـــدة
على غيـــوب الأسرار مطلعـــا
بـبـــأسـك البيـض والطلى اصطحبـت
بعـد لـك الـذئب والطـلا رتعـا
كـم صـائد لم يقـع لـه قنـص
في شرك وهـو فيـه قـد وقعـا
ومـالـك حين رمـت قلعتـه
غـدا مطيعـا للأمـر متبعـا
عنـا خشـوعـا لـرب مملكـة
لغير رب السماء مـا خشعـا
كـان مقيما منهـا على الفلـك الـ
أعلى شهـابـا بنـوره سطعـا
لكنها الشهـب مـا تنير إذا
لاح عمـود الصبـاح فـانصـدعـا
يـدفعهـا طـائعـا إليـك وكـم
عنهـا إبـاء بجهـده دفعـا
هـي التـي في علـوهـا زحـل
كـر على وردهـا ومـا كـرعـا
وهـي التـي قـاربـت عطـارد في الـ
أفق فـلاحـا والفـرقـديـن معـا
كـان منهـا السهـا إذا استرق السمـ
ـع أتـاهـا في خفيـة ودعـا
هضبـة عـز لـولاك مـا ارتقيـت
وطـود ملـك لـولاك مـا فـرعـا
مـا قبلـت في ارتقـاء ذروتها
مـن ملـك لا رقـى ولا جـذعـا
عـزت على المالـك الشهيـد واعـ
ـطتك قيـاداً مـا زال ممتنعـا

لــــلأب لـــو حـــل خطبهـــا الغـــدا
محرمـــا لابنـــه ومـــا شرعـــبا
لازلـــت محمـــود في أمـــورك محمـــو
داً بثـــوب الاقبـــال مـــدرعـــا

وفي سابـع عشر صفر من هـذه السنة تـوفي بهاء الدين عمـر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتـــم لمحمـــود كـــآل محمـــد
متصـــادقـــي الأفعـــال والأسماء
يتلـــو أبـــا بكـــر على حسنـــاتـــه
عمـــر المـــدح في سنـــا وسنـــاء
ويليـــه عثمان المرجـــى للعـــلا
وعلي المأمـــول في الـــلأواء
وتقيـــل الحســـن المجـــد مجدهـــم
فهـــم ذوو الإحســـان والنعماء
فـرعـت لمجـد الـديـن أخوتـه الـذرى
دون الـــورى في المجـــد والعليـــاء
مـــن ســـابـــق كـــرمـــا وشمـــس سيـــاده
شرفـــا وبـــدر دجنـــة وبهاء
سرج الهدى سحـب النـدى شهـب النهـى
أســـد الحروب ضراغـــم الهيجـــاء

يريـد سابـق الدين عثمان، وشمـس الدين علي، وبـدر الديـن حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

# فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليها صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، وإسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها،والإستيلاء عليها، فقال لهم : الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج . فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

## فصل
## فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ( وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم)(١٠٣)

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا

إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى

عروس بعلها أسد هزبر
يصيد المعتدين ولن يصادا

ألا يا معشر الأجناد سيروا
وراء لوائه تلقوا رشادا

فما كل أمرىء صلى مع النا
س مأموما كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر، عبر العرقلة على داره فوجدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد خلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب

فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش، جوارقيسارية القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله، فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ماسيأتي، وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة أوّلها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

الناصر الملك الموفي بذمته
ومن ندى كفه يغني عن الديم

ومـــن إذا جـــرد البيـض الصـــوارم في الـــــ
ـــــــهيجاء أغمـدهـــا في البيـض والقمـــم
ومـــن حـــوى الملكمـــن بعـد الطـــاعـــة في أنـــ
ـتـــزاعـــــه بشبـــا الهنـــديـــة الخذم
وورد طـــاغيـــة الأفـــرنـــج يحســـب مـــا
رجـــاه مـــن ملـــك مصر كـــان في الحلـــم
ولى وراحتـــــه صفـــــر وقـــد ملئـــت
بعـــد الطماعـــة مـــن يـــأس ومـــن نـــدم
يصعـــــدون على مـــــا فـــــاتهم نفســـا
لـو لا فـــح البحـر أضحـــى الموج كـالحمـــم
وفي الســـلامـــة لـــو لا جهلهـــم ظفـــر
لمن أراد نـــــزال الأســـــد في الأجـــــم
وهـــــم أســـــود الثـــرى لكـــن أذلهم
ملـــك لـديـــه الأسـود الغلـب كـالغنـم

وله من قصيدة أخرى:

أقمـــت عمـــود الـــديـــن حين أمـــالــــه
لطـاغـي الفـرنـج الغتـم طـاغـي بني سعـد
وجـــاهـــدت حـــزب الكفـــر حتـــى رددتهم
خـــزايـــا عليهـــم خيبـــة الـــذل والـــردّ
أفـــدت بها قـــدمـــت ملكـــا مخلـــدا
وذكـــرا مـــدى الأيـــام يقـــرن بـــالحمـــد
وذكـــرك في الآفـــاق يسري كـــأنـــه الـــــ
ـــــصباح لــــه نشر الألـــوّة والنـــد

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:

ولكـــم أشمـــت الـــروم أشـــأم بـــارق
أضحـــت ميـاه نفـــوسهـــا مـــن قطـــره
وافـــاك بحـــر دروعهـــا عـــن مـــدّه
ومضـــى وقـــد حكمـــت ظبـــاك بجـــزره

ولقيت مرّيا وطعم حياته
حلو فبدّله القتال بمرّه .
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلا معاقد كره
واطرده من وكر الشآم فإنه
قد طار منك بخافق من ذعره

## فصل
## في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه ( وما يعدهم الشيطان إلاغروراً)(١٠٤) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلاّ إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد : أقام أسد الدين بها يتردّد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخاليب الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن تردّدهم إليها في كل وقت لايفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلاّ السلطان نفسه، يعنى صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
علي لديه شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الذي
مصر حماه وعليّ أبوه
نص على شاور فرعونها
ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية:فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أوّل ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة ، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

- ٧٩٣٨ -

## فصل
## في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرّته بخطه ، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوّة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوّة، واتخذه للفوز سبيلا:( و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (١٠٥).

## نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجـل الملك المنصـور، سلطـان الجيـوش، ولي الأئمة، مجير الأمـة، أسـد الدين، كـافل قضاة المسلمين ، وهادي دعـاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العـاضد، عضـد الله بـه الديـن، وأمتـع بطول بقـائه أمير المؤمنين، وأدام قدرتـه وأعلى كلمته، سلام عليـك، فإنـه يحمد إليك الله الـذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلي على محمد خـاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمـل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتـأخرين، الذيـن تراهم بالألفـاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبريـن، والبلاغـة عكس ذلـك قال النبـي صلى الله عليه وسلـم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الذين بالوزارة، طلـب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بـالقاضي الفـاضل عبـد الرحيم ابـن البيساني، وكـان أبوه مـن أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخـرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كـاتباً بالاسكنـدرية على باب السـدرة، ثم إنه اتصـل بالكامـل بن شاور فـاستكتبه، وزاحـم به كتاب القصر فثقـل عليهم أمـره، فلما طلب أسد الـدين كاتباً أرسـل إليه، وظنّ رؤسـاء ديوان المكاتبات أن هـذا أمر لايتم، وأن أسد الـدين سيقتل كما قتل من كـان قبله، فأرسلوا بـالفاضل إليه، وقالوا: لعلـه يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكـان من أمره ما كـان واستمرّ في الـدولـة ولم يزدد في كـل يـوم الا تقدّمـا بصـدقه ودينـه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بـالجد أدركـت مـا ادركـت لا اللعـب
كـم راحـة جنيـت مـن دوحـة التعـب

يـا شيركـوه بـن شـاذي الملـك دعـوة مـن
نـادى فعـرّف خير ابـن بخير أب
جـرى الملـوك ومـا حـازوا بـركضهـم
مـن المدى في العلى مـا حـزت بـالخبـب
تمل مـن ملـك مصر رتبـة قصرت
عنهـا الملـوك فطـالـت سـائر الـرتـب
فتحـت مصر وأرجـو أن تصير بها
ميسرا فتـح بيـت القـدس عـن كثـب
قـد أمكنـت أسـد الـديـن الفـريسة مـن
فتـح البـلاد فبـادر نحـوهـا وثـب
أنـت الـذي هـو فـرد مـن بسـالتـه
والـديـن مـن عـزمـه في جحفـل لجب
في حلـق ذي الشرك من عـدوى سطاك شجا
والقلـب في شجـن والنفـس في شجـب
زارت بنـي الأصفـر البيـض التـي لقيـت
حمر المنـايـا بها مـرفـوعـة الحجـب
وإنها نقـد مـن خلفهـا أسـد
أرى سـلامتهـا مـن أعجـب العجـب
لقـد رفعنـا إلى الـرحمن أيـدينـا
في شكـرنـا مـا بـه الاسـلام منـك حبـي
شكـا إليـك بنـو الاسـلام يتمهـم
فقمـت فيهـم مقـام الـوالـد الحدب
في كـل دار مـن الأفـرنـج نـادبـة
بها دهـاهـم فقـد بـاتـوا على نـدب
مـن شر شـاور انقـذت العبـاد فكـم
وكـم قضيـت لحزب الله مـن أرب
هـو الـذي أطمـع الأفـرنـج في بلـد الـ
ـإسلام حتـى سعـوا للقصـد والطلـب

وإن ذلـــــك عنـــــد الله محتســـــب
في الحشر مـــن أفضـل الطـاعـات والقـــرب
أذلـــــه الملـــــك المنصـــــور منتصرا
لما دعـــا الشرك هـــذا قـــد تعـــزز بي
ومـــا غضبـــت لـــديـــن الله منتميـــا
إلا لنيـــل رضـــى الـــرحمن بـــالغضـــب
وأنـــت مـــن وقعـــت في الكفـــر هيبتـــه
وفي ذويـــه وقـــوع النـــار في الحطـــب
وحين سرت إلى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول الله بـــالـــرعـــب
يـــا محيـــي الأمـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي
لما سعيـــت لـــوجـــه الله مـــرتقبـــا
ثـــوابـــه نلـــت عفـــوا كـــل مـــرتقـــب
أعـــدّت نقمـــة مصر نعمـــة فغـــدت
تقـــول كـــم نكـــت لله في النكـــب
أركبـــت رأس سنـــان رأس ظـــالمهـــا
عـــدلا وكنـــت لـــوزر غير مـــرتكـــب
ردّ الخلافـــة عبـــاسيـــة ودع الـــــــ
ـــــدعي فيهـــا يصـــادف شر منقلـــب
لا تقطعـــن ذنـــب الأفعـــى وتـــرسلهـــا
فـــالحزم عنـــدي قطـــع الـــرأس كـــالـــذنـــب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لما سمحـــت لأهـــل الشـــام بـــالخشـــب
عـــوضـــت مصر بما فيهـــا مـــن النشـــب

وإن بــذلــت لفتــح القــدس محتسبــا
لــلأجــر جــوزيــت أجــراً غير محتســب
والأجــر في ذلــك عنــد الله مــرتقــب
فيما يثيــب عليــه خير مــرتقــب
والــذكــر بــالخير بين النــاس تكسبــه
خير مــن الفضــة البيضــاء والــذهــب

ولســت تعــذر في تــرك الجهــاد وقــد
أصبحــت تملــك مــن مصر إلى حلــب
وصــاحــب الموصــل الفيحــاء ممتثــلا
لما تــريــد فبــادر فجــأة النــوب
فــأحــزم النــاس مــن قــوى عــزيمتــه
حتــى ينــال بها العــالي مــن الــرتــب
فــالجدّ والجدّ مقــرونــان في قــرن
والحزم في العــزم والإدراك بــالطلــب
فطهــر المسجــد الأقصــى وحــوزتــه
مــن النجــاســات والأشراك والصلــب
عســاك تظفــر في الــدنيــا بحســن ثنــا
وفي القيــامــة تلقــى خير منقلــب (١٠٦)

المحتوى


| | |
|---|---|
| ٣- | توطئة |
| ٧- | خطبة الكتاب |
| ١٤- | فصل - أصل الدولة النورية وسمات نور الدين |
| ٥٠- | فصل - ما مدح به نور الدين |
| ٦٦- | فصل - أصل البيت الأتابكي |
| ٦٩- | مقتل نظام الملك |
| ٧١- | وفاة ملكشاه والحوادث جده |
| ٧٣- | ذكر أخبار زنكي |
| ٧٦- | مولد نور الدين محمود |
| ٧٨- | ولاية جيوش بك الموصل |
| ٨٢- | ولاية زنكي الموصل |
| ٨٤- | أعمال زنكي التوسعية |
| ٨٧- | جهاد زنكي للفرنج |
| ٩١- | فتح شهرزور وبعلبك وحصار دمشق |
| ٩٤- | حوادث سنة ٥٣٤ |
| ٩٩- | حوادث سنة ٥٣٧ |
| ١٠١- | فتح الشهيد الرها |
| ١١١- | حصار البيرة ومقتل جقر |
| ١١٤- | وفاة زنكي |
| ١١٩- | بعض سيرة زنكي |
| ١٢٨- | ما جرى بعد مقتل زنكي وتملك ولديه غازي ومحمود |
| ١٣٣- | ما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والفرنج |
| ١٣٨- | تشدد الفاطميين في القضاء |
| ١٤٠- | سنة ٥٤٢ |
| ١٤٢- | نزول الفرنج على دمشق |
| ١٤٣- | سنة ٥٤٣ |
| ١٤٤- | ماذكره أسامة بن منقذ من حصار دمشق |
| ١٤٨- | استشهاد الفندلاوي |
| ١٥٢- | رحيل الفرنج عن دمشق |
| ١٥٥- | مسير نور الدين الى بصرى |
| ١٥٩- | اعمال نور الدين بحلب |
| ١٦١- | سنة ٥٤٤ |
| ١٦٣- | مسير نور الدين الى فامية |
| ١٧٨- | وفاة انروأمر ابن الصوفي |
| ١٨١- | وفاة غازي بن زنكي |
| ١٨٤- | ولاية قطب الدين الموصل |
| ١٨٦- | توجه نور الدين الى سنجار |
| ١٩٣- | قصد نور الدين حوران للجهاد |

| | |
|---|---|
| ١٩٤ـ | سنة ٥٤٥ |
| ١٩٧ـ | فتح عزاز |
| ٢٠٠ـ | أسر جوسلين |
| ٢١٤ـ | مشاكل بين مجير الدين وصاحب صرخد |
| ٢١٦ـ | سنة ٥٤٦ |
| ٢٢٩ـ | باقي حوادث هذه السنة |
| ٢٤٠ـ | سنة ٥٤٧ |
| ٢٤٩ـ | سنة ٥٤٨ |
| ٢٥٠ـ | تحركات آل الصوفي بدمشق |
| ٢٥٣ـ | سنة ٥٤٩ |
| ٢٦٩ـ | وفاة بنان |
| ٢٧٤ـ | وصول أبو بكر بن الداية الى دمشق |
| ٢٧٧ـ | سنة ٥٥٠ |
| ٢٨١ـ | سنة ٥٥١ |
| ٢٨٧ـ | نشاطات نور الدين |
| ٢٩٠ـ | سنة ٥٥٢ والزلازل |
| ٣٠٢ـ | توجه نور الدين الى حلب ومرضه |
| ٣١٠ـ | حصن شيزر وولاية بني منقذ |
| ٣١٦ـ | بواقي حوادث سنة ٥٥٢ |
| ٣١٨ـ | سنة ٥٥٣ |
| ٣٣٢ـ | زلزلة في حلب |
| ٣٣٦ـ | تحريض نور الدين على اعادة المكوس |
| ٣٣٨ـ | سنة ٥٥٤ |
| ٣٤٣ـ | سنة ٥٥٥ |
| ٣٤٦ـ | سنة ٥٥٦ |
| ٣٥٤ـ | سنة ٥٥٧ |
| ٣٥٦ـ | سنة ٥٥٨ |
| ٣٦[illegible]ـ | سنة ٥٥٩ |
| ٣٧٥ـ | ذكر جمال الدين وزير الموصل |
| ٣٨٩ـ | سنة ٥٦٠ |
| ٣٩٣ـ | سنة ٥٦١ |
| ٣٩٧ـ | سنة ٥٦٢ |
| ٤١٥ـ | سنة ٥٦٣ |
| ٤٢٢ـ | وفاة زين الدين علي |
| ٤٢٤ـ | سنة ٥٦٤ |
| ٤٢٨ـ | فتح الديار المصرية |
| ٤٣٠ـ | فيما فعله نور الدين |
| ٤٣٥ـ | القبض على شاور وقتله |
| ٤٤١ـ | وزارة أسد الدين |